الباب التاسع

وقفة مع الصراع الأزلى بين القديم والجـديد

التطور سنة الحياة

تناولت فى موضع سابق موضوع تطور الحياة بما يتطلبه التطور – كناموس طبيعى – من ضرورة التكيف المتواصل مع ظروف البيئة فى الزمان والمكان[1] . وإجمال ذلك هو القول بأن الحياة تسير فى تطور دائم ، لكنها لا تسير على وتيرة واحدة مضطردة نحو الأمام . بل لابد من حدوث صراع أزلى محتدم بين أولئك الراغبين فى متابعة ركب تطور الحياة ، وأولئك الراغبين فى المحافظة على القديم .

وفى هذا الشأن يقسم علم النفس الاجتماعى الشخصيات الإنسانية بوجه عام إلى فئتين : فئة الراغبين فى التطور **Progressists** وفئة العازفين عنه ، أى فئة أولئك المتعلقين بأهداب الحاضر أو الماضى **Regressists** .

ولا توجد حدود فاصلة بين هذين النموذجين من الشخصيات ، لأن كل نموذج منهما يحوز قدراً أو آخر من هذا الميل أو ذاك ، مع تفاوت بينهما من ناحية المدى لا من ناحية المبدأ .

وهذا التقسيم للمشارب أو للمكونات النفسية لطبائع بنى البشر يقابله تقسيمهم إلى شخصيات انبساطية **Extroverts** وأخرى انطوائية **Introverts** . وكل إنسان يحوز – بحسب فطرته – قدراً أو آخر من هذا الميل أو من ذاك ، لكن مع تغلب فى مدى تأثير هذا الميل أو ذاك فى نواحى سلوكه ، وفى حكمه العام على الأمور .

---

(١) راجع ماسبق فى ص ٩١ – ٩٨ ، ٢٢٨ – ٢٥٣ . وما ورد فى كتاب « العودة للتجسد : بين الاعتقاد والفلسفة والعلم » ١٩٨٧ ص ٤٨٩ – ٥٩١ .

ومع مراعاة أن النزعة الانبساطية تكون فى المعتاد أميل إلى رغبة التجديد من النزعة الانطوائية التى تكون فى المعتاد أميل إلى التقليد ، وإلى الارتباط بالماضى القريب أو البعيد .

* * *

ومن الطبيعى — بسبب وجود هذين النموذجين المتباينين من الشخصيات أن ينشب صراع محتدم ودؤوب بين أصحاب نزعة اللهفة على التطور والتجديد ، وأصحاب نزعة اللهفة على الجمود والتقليد .

وينشب هذا الصراع فى كل جوانب العلم ، والفلسفة ، والاعتقاد ، والأدب ، والشعر . . . بل وفى كل صور السلوك الاجتماعى البعيدة عن هذه الجوانب .

وصدى هذا الصراع هو ما يلمسه الإنسان من ظهور عدة اتجاهات فى كل من هذه الأمور ، لكن يمكن إرجاعها كلها إلى أحد اتجاهين رئيسيين : يبدو أولهما أميل إلى التجديد ، مدافعاً عنه بكل حرارة وإخلاص ، وثانيهما يبدو أميل إلى التقليد مدافعاً عنه — بدوره — بكل حرارة وإخلاص . ويتصور كل اتجاه منهما أنه فى دفاعه عن مواقعه يستند إلى أسانيد واضحة حاسمة من الحق والواقع .

لكن علم النفس يرى أن هذه « الأسانيد الواضحة الحاسمة » ليست برمتها مستمدة من الحق والواقع ، بقدر ما هى مستمدة من الفطرة التى جُبل عليها صاحبها ، والتى تعبّر عنها خلجات اللاشعور ، أكثر مما تعبر عنها أسانيد الشعور ، أو الاستدلال الواعى فى تقدير الأمور .

وبطبيعة الحال فإن هذا الصراع بين نزعة التقليد ونزعة التجديد له وثيق اتصال بتطور الثقافات والمفاهيم المتنوعة ، سواء أجرت حركة التطور سريعة أم بطيئة خلال حقب عديدة ودهور . وهذه الحركة تتفاوت كثيراً بين مشارب الشعوب والجماعات ، كما تتفاوت كل المشارب والنزعات . لأن حركة التطور بوجه عام لها اتصال وثيق بالسنن الفطرية للشعوب والسلالات ، التى يعنى بها بوجه خاص « علم الإنسان » فى جانبيه الاجتماعى والنفسى .

ماذا عن الصراع بين التقليد والتجديد ؟

لكن حكم العقل على حركة التطور التاريخى لدى أى شعب من الشعوب ينبغى أن يتجه إلى تلمس مقتضيات المنطق الاستدلالى على قدر طاقته حتى يظفر بالحكم الصحيح ، و بسلامة التقدير النهائى فى العديد من الأمور .

و هذا الصراع الأزلى بين نزعتىّ التقليد و التجديد يجرى فى تطور مفاهيم الاعتقاد ، و الفلسفة ، و العلم ، و الأدب ، و الشعر . لكن حركة التطور فى مفاهيم الفلسفة تبدو أسرع مما هى فى مفاهيم الاعتقاد . و تبدو فى مفاهيم العلم و الأدب أسرع مما هى فى مفاهيم الفلسفة ، بالنظر إلى تباين مسالك الاعتقاد عن العلم ، و العلم عن الفلسفة أو الأدب .

و كل خلجة من خلجات الإنسان — التى تقع و راء تطوره العقلى أو الوجدانى — هى مزيج من خلجات لا تحصى ، و شائعة شيوعاً تاماً بين مسالك متنوعة تنتمى إلى الاعتقاد ، و الفلسفة ، و العلم ، و الأدب ، بنسب تتفاوت من إنسان إلى آخر بحسب فطرته ، و ثقافته ، و ظروفه ، و تاريخه . . . فمن الطبيعى إذاً أن يحتدم الصراع بين مفاهيم هذه المسالك المتنوعة متفاعلة معاً فى أعماق الإنسان الواحد . و أن يتخذ صوراً شتى و أشكالا متنوعة .

و ذلك أياً كان موقف هذا الإنسان الواحد بين انفعالين يبدوان متعارضين : و هما انفعال اللهفة على التجديد ، عندما يعارضه انفعال اللهفة على التقليد .

و لذا فإن هذا الموقف الوجدانى للإنسان الواحد يمثل قضية كبرى من قضايا الوجود و الخلود ، بقدر ما يمثل قضية كبرى من قضايا الشعور و اللاشعور التى تقع فى الأساس من علم النفس فى جانبيه المقلد منه و المجدد . و التى تقع فى الأساس — فى هذا المقام — من التطور الاجتماعى و الثقافى و الحضارى بوجه عام .

تبــويب

و هذه القضية الكبرى — ألا و هى قضية التطور الحضارى — يلزم أن أعطيها هنا بعض العناية بقدر اتصالها بحركة هذا البحث الحديث نسبياً فى الظواهر غير المألوفة .

فقد بدأت هذه الحركة منذ قرن ونصف فى وسط مناوئة ضارية من نزعة «التقاليد» فى دوائر الفلسفة، والاعتقاد، والعلم، والأدب، بنفس المقدار.

واحتاج هذا المنهج العلمى الوليد إلى مضى نصف قرن بالأقل حتى يشب على قدميه، ثم يقفز قفزاً سريعاً بعد أن تكشف عن فتح نوافذ متنوعة، رحبة، مضيئة على العديد من الألغاز والمعميات فى تحديد العلاقة بين الإنسان والكون. وبالتالى تكشف عن إحداث تغييرات جذرية فى كل جوانب علوم العصر ومفاهيمه، على ما وضحته بأسانيده فى كل باب من أبواب هذا الكتاب.

وهى أسانيد أرجو — لفرط وضوحها وترابطها — أن تكون قد أحدثت الأثر المطلوب عند القارئ الكريم، مهما كان من أنصار التقليد أو التجديد. وذلك إذا كان القارئ يريد أن يكون منصفاً لحركة التطور العلمى، بمقدار ما يكون منصفاً لنفسه عند متابعة بعض خطوات هذه الحركة الهامة.

ناهيك بهذه الحركة عندما تستهدف تخفيف آلام الإنسانية جمعاء فى العديد مما تعانيه من دواعى الألم والأنين، الظاهر والدفين، خصوصاً فى مواجهة تلك الأمراض العضوية والعصبية التى لا تستجيب للأساليب التقليدية.

وذلك بالإضافة إلى ارتياد آفاق جديدة شاسعة فى مجالات عديدة من بث الرجاء والعزاء والاطمئنان إلى الموت، ناهيك بتأدية خدمات عملية متنوعة، وتتجاوز فى قيمتها كل تقدير أو قياس، بما فى ذلك خدماتها للعلم والفلسفة والأدب والاعتقاد . . .

ورغم أن قصة هذا الصراع الأزلى بين القديم والجديد قد يطول شرحها لاتساع نطاقها، إلا أنه يجمل الاكتفاء هنا بثلاثة فصول منها. وذلك على النحو الآتى : —

الفصل الأول : فى موقف الفلسفة من هذا الصراع.

الفصل الثانى : فى موقف الاعتقاد منه.

الفصل الثالث : فى موقف المنهج العلمى منه.

الفصل الأول

فى موقف الفلسفة

من قصة الصراع بين القديم والجديد

من دواعى هذا الصراع

مهما كانت قيمة الأسلوب الوضعى الذى أصبح يهيمن على منهج أى علم حديث ، ومهما كانت قيمة النتائج التى وصل إليها ووثيق اتصالها بأغوار الحقائق العلمية ، فإنه لابد من مرور زمن كاف — قد يطول كثيراً — حتى تحدث هذه النتائج أثرها المرجو فى مسالك العلم الأخرى ، وحتى تستمد منه معطيات فلسفية يصح الارتباط بها والتعويل عليها .

أما قبل مرور هذا الزمن الكافى فلابد من توقع مقاومة هذه النتائج بشدة ، وإثارة غبار كثيف من الشكوك والمخاوف الفلسفية حولها من كل ناحية ، كما كانت الحال دائماً وعلى مر العصور بالنسبة لأى كشف جديد مهما كان ضئيل القيمة ، فما بالك عندما يتعلق هذا الكشف أو الكشوف الجديدة بالأصول الكلية لأى منهج قديم أو حديث ؟

لهذا فإن كل كشف جديد مهما بنى على وقائع ثابتة خضعت للاختبار المتكرر ، وعلى مشاهدات يقينية ، لابد أن يلقى مقاومة ضخمة متوقعة قد تطول لآماد كثيرة ، خصوصاً عندما يرتبط هذا الكشف بأعمق جوانب فلسفة العلم بعد أن تكون هذه الجوانب قد ارتبطت تماماً بأرسخ الافتراضات الفجة عن مادية هذا الإنسان وعن طبيعة علاقته بالكون .

فلابد عندئذ من الاعتراضات الكثيرة ، ومن السخرية الطويلة التى « تكشف — كما يقول برجسون — عن وجود فلسفة مستترة غير واعية لذاتها ، غير واعية وبالتالى

متقلبة ، غير واعية وبالتالى عاجزة عن أن تتكيف باستمرار مع الملاحظة والتجربة كما يخلق بالفلسفة الجديرة بهذا الاسم . . . وسبب هذه الفلسفة هو العادة التى تعودها الفكر الإنسانى منذ زمن طويل ، وذلك هو السبب فى بقائها وانتشارها بين الناس » .

* * *

وعلى أية حال فلابد أن يتعثر تقدم الفلسفة بالشكوك الضخمة النامية ، إذ أن الشك المطلق حق أولى لكل عقل ، لكن لا بد للعقل من أن يبلغ غايته من اليقين فى نهاية المطاف ، لأن اليقين العلمى هو غاية الشك المطلق وهدفه الأسمى ، مهما طال الأمد بهذا اليقين المرجو ، ومهما تعثر بالعقبات الجسام وبالاعتراضات المشروعة وغير المشروعة .

ولعل هذا الارتباط الشديد بأسلوب الشك — بل الإنكار الرافض — له ما يبرره من الارتباط الانفعالى القديم بالفلسفة النظرية وبما وراء الطبيعة ، وما تكشف عنه هذا الارتباط بدوره من أخطاء متراكمة ، طالما ضللت مناهج المعرفة الصحيحة وعاقت تطورها إعاقة جسيمة لمدى قرون طوال . ولذا سرعان ما صوّب الأسلوب الوضعى مدافعه — بعناية وإحكام — إلى قلاع راسخة من الفلسفات النظرية ومما وراء الطبيعة .

ولكن الانتصار فى النهاية من نصيب البحث الموضوعى عن الحقيقة ، الذى ينبغى أن يتميز باستقامة الاستنتاج وترابطه ، وبشجاعة المواجهة وأمانتها ، مع الارتباط الصادق بأوليات المعرفة الصحيحة . فهذا هو الطريق السليم فى الفلسفة للوصول إلى تأصيل الأمور تأصيلاً صحيحاً .

موقف ابن رشد من هذا الصراع .

ولماذا نذهب بعيداً ، وأمامنا فلسفة أبو الوليد محمد بن رشد (**٥٢٥ — ٥٩٥ هـ**) وهو أبعد فلاسفة الإسلام ذكراً . فهو لم يكن جاحداً منكراً للدين ، بل إن الدين عنده يصور الحقائق الفلسفية على أسلوب المجاز . وهو يميز بين التفسير الحرفى للنصوص وبين معانيها التى يدركها الحكماء ويرتفعون بها وحدهم إلى الحقائق العليا .

ومن واجب الفلسفة — فى تقديره — أن تنظر فيما هو من تقليد الدين ، وما هو من القضايا التى تحتمل التفسير ، وعلى أى وجه يكون تفسيرها . وقد تسنى لابن رشد على هذه القاعدة أن يوفق بين القول بحدوث العالم على مذهب الغزالى ، والقول بقدمه على مذهب المشائين . وله رسالة خاصة يحاول بها هذا التوفيق ، وفيها أول إيحاء بمذهب الحقيقة المزدوجة الذى توسع فيه الرشديون اللاتين . . . [1] .

* * *

ولعل ابن رشد قد سبق زمانه بقرون عديدة عندما كان يبحث فى جميع القضايا ويناقش جميع الحلول . وعندما كان ينادى بأن « المنطق يمهد السبيل أمام معارفنا ، حتى ترتقى من الجزئى المحسوس إلى الحقيقة العقلية المجردة ، أما العامة فلا يزالون متعلقين بالحس ، متعثرين فى الضلال ، وقصور فطرتهم وقلة معارفهم ، إلى جانب ما اعتادوه من الخصال الرديئة . كل هذا يبعد بهم عن الكمال ، غير أن الأمر لا يخلو من وجود طائفة تستطيع الوصول إلى معرفة الحقيقة .

والنسر يستطيع أن يحدق فى وجه الشمس ، ولو لم يستطع ناظر أن يحدق فى وجهها لكانت الطبيعة قد أوجدتها باطلا . وكل ما يشرق فلا بد أن يرى ، وكل موجود لابد أن يعرفه ولو شخص واحد . والحقيقة موجودة ، ولو كنا لا نستطيع الدنو منها لكان عبثاً ما تكنه قلوبنا من الشوق إليها » .

ويذهب ابن رشد وغيره إلى ما ذهب إليه سبينوزا **Spinoza** فيما بعد من أن الوحى لا يرمى إلى تعليم الناس جميع الحقائق ، وإنما يرمى إلى إصلاح شأنهم . وليس غرض الشارع تلقين العلم ، بل غرضه أخذ الناس بالطاعة وبالأعمال الصالحة . . .

كما يذهب ابن رشد إلى أنه يجوز للفلاسفة العارفين أن يفسروا نصوص الوحى « وهم يفهمون مراميه بنور الحقيقة العليا ، ولا يقولون من ذلك للعامة إلا ما هم متهيئون لفهمه ، وبهذا يحل الوفاق محل الخلاف ، وتتفق أحكام الشريعة مع الفلاسفة ، وذلك لأن لكلٍّ غرضه الذى يرمى إليه ، والعلاقة بينهما كالعلاقة بين النظرية وتطبيقها العملى .

---

(١) عن « ابن رشد » بقلم عباس محمود العقاد ص ٣٣ .

والفيلسوف حين ينظر فى الدين يسلم بصحته فى مجاله الخاص بحيث لا تصطدم الفلسفة بالدين بتاتاً . أما الفلسفة فهى أسمى صور الحق ، وهى فى الوقت نفسه أسمى دين ، ودين الفلاسفة هو معرفة كل ما هو موجود »[1] :

متى وكيف بدأ الجمود

وهذا المنهج المتحرر بعض التحرر سرعان ما انتكس فى الشرق على أيدى بعض المتشددين من أرباب الحرف ، وذلك بسبب الارتباط بين النظام السياسى للدولة وبين الحصار المضروب على الفلسفة . وكان هذا الارتباط هو وسيلة الحكام للتسلط باسم الدين على أفئدة المحكومين . وهكذا ساد التوقف والجمود فتراجعت الفلسفة سريعاً وذوت أغصانها فى الشرق فكان ابن سيناء وابن رشد خاتمة الفلاسفة العظماء — كما يقول دى بور deBoer[2] . . .

وهذا التوقف فى وجه الحقائق المتطورة عيب قديم فينا للأسف الشديد . ويقول فى وصفه هذا المستشرق المعروف ج . دى بور : « إنه أسست فى بغداد أول مدرسة فى عام ٤٥٧ هـ (١٠٦٥ م) (وهى المدرسة النظامية التى أسسها نظام الملك وزير السلطان السلجوقى ألب أرسلان) ومن ذلك الحين صار للشرق علم ، ولكن هذا العلم لم يكن إلا رواية لما فى الكتب القديمة من غير تصرف .

فقد كان المعلم يلقن تلاميذه ما أخذه عن أساتذته ، وتكاد لا توجد فى الكتب الجديدة عبارة إلا وهى فى الكتب القديمة . وبهذه الطريقة نجا العلم القديم من الضياع ، على أنه يحكى أن علماء ما وراء النهرين لما سمعوا بإنشاء أول مدرسة أقاموا صلاة على روح العلم ، ويظهر أنهم لم يكونوا فى هذا بمخطئين ! !

ثم توالت فى القرن السابع الهجرى هجمات التتار تجتاح البلاد الشرقية من

---

(١) عن كتاب « تاريخ الفلسفة فى الإسلام » تأليف ج . دى بور ترجمة د . محمد عبد الهادى أبو ريده ص ٢٥٨ — ٢٦٧ . وهو يحيل القارئ إلى كتابى ابن رشد فى « فصل المقال » ، و « كشف مناهج الأدلة » .

(٢) عن المرجع السابق ص ٢٨٦ .

الإمبراطورية الإسلامية ، فأتت على كل ما خلفه الترك . ولم تزدهر من بعد فى تلك البلاد ثقافة يمكن أن تكون مصدراً لفن جديد ، أو أن تبعث فى العلم حياة جديدة[١] » .

* * *

ويلاحظ نفس هذا المستشرق فى موضع لاحق أنه « كثيراً ما يقال إن الغزالى قضى على الفلسفة فى الشرق قضاء مبرماً ، لم تقم لها بعده قائمة ، ولكن هذا زعم خاطىء لا يدل على علم بالتاريخ ، ولا على فهم لحقائق الأمور ، فقد بلغ عدد أساتذة الفلسفة وطلابها بعد عصر الغزالى مئات بل ألوفاً . وظل علماء التوحيد متمسكين بأدلتهم الكلامية يؤيدون بها العقائد ، كما لم يترك علماء الفقه تدقيقاتهم وتفريعاتهم ، وكان فى الثقافة العامة حظ من الفلسفة .

نعم لم تستطع الفلسفة أن تحرز لنفسها المكان الأول ، ولم يتيسر لها أن تستعيد نفس المكانة التى كانت تتمتع بها من قبل . ويروى فى خبر من أخبار العرب أن أحد الفلاسفة وقع سجيناً فأراد رجل أن يشتريه ويسترقه ، فسأله : لأى عمل تصلح ؟ فأجاب أصلح لأن أكون حراً . فلابد للفلسفة من الحرية ، ولكن هذه الحرية لم تكن فى الشرق ، ذلك لأن الخلاص من أعباء الحياة المادية ، وحرية البحث لأجل البحث كانا يتضاءلان باستمرار فى البلاد التى استأثر فيها بالأمر حكام جاهلون ، لم يكونوا أهلا لأن يحموا حرية الفكر ويكفلوها لأصحابها . وكان الفلاسفة عرضة للاضطهاد فى بلاد كثيرة ، لأنهم اعتبروا خطراً على الدين والدولة .

على أن هذه الحالة لم تكن سوى علامة من علامات تدهور عام فى المدنية . ورغم أن رحالة الغرب فى القرن العاشر الميلادى (الرابع من الهجرة) أشادوا بمدنية الشرق ، فإن هذه المدنية كانت فى حالة تدهور إذا قيست بما كانت عليه فى العصور السابقة ، ولم يستطع أحد أن يزيد شيئاً فى أية ناحية من نواحى الحياة على ما بلغه المتقدمون ، لأن العقول كانت من الضعف بحيث عجزت عن ذلك . . . »[٢] .

---

(١) عن نفس المرجع ص ٨ ، ٩

(٢) عن المرجع السابق ص ٢٣١ ، ٢٣٢ .

ويروى دى بور كذلك أن دولة المرابطين فى الأندلس جاءت لإنقاذ البلاد : « وكان المرابطون أكثر تمسكاً بالدين ، بل أدرى بأساليب السياسة من ملوك الأندلس الذين كانوا قد انغمسوا فى الملذات . ولاح إذ ذاك أن زمن الثقافة الرفيعة والبحث الحر قد انقضى ولن يعود ، فلم يكن يجرؤ على الظهور فى الناس إلا أهل الحديث المغالون فى التشدد ، أما الفلاسفة فقد كانوا عرضة للاضطهاد وللقتل إذا هم جاهروا بآرائهم »[١] .

الفلسفة هى الحرية

وهكذا قضى على تقدم الفلسفة فى الشرق ، أما فى الغرب فقد سارت الفلسفة فى طريق التحرر تدريجياً . وذلك رغم محاولات المتشددين فى الحرف ، التى أخذت تتراجع شيئاً فشيئاً إزاء إصرار الفلاسفة على أن حقهم فى حرية الرأى مطلق ، لا يحتمل منازعة ، ولا يقبل مساومة أو أنصاف حلول . . . فكان عصر التنوير ، وكانت اليقظة العقلية ، وكانت فتوح العلم الحديث كلها . . .

وذلك لأن الفلسفة هى الحرية فى أوسع معانيها ، والحرية هى الفلسفة ، وكل قيد يرد على الفلسفة معناه تدهور محتوم فيها ، ومعها بطبيعة الحال تدهور العلم فى كل أوجه نشاطه . فهل من حقنا أن نتصور كما تصور المتشددون فى الحرف أن الفلاسفة دعاة تشكك وإلحاد لمجرد أنهم يبحثون فى جميع القضايا ويناقشون فى حرية كافية جميع الافتراضات ؟ ! ويتجاهلون أن الفلسفة قد تكون بنفس المقدار سبيل العقل إلى العرفان وسبيل الوجدان إلى الإيمان ؟ ولماذا لا يحاربون الفلسفة فى الخارج بل يرفعونها إلى أعلى عليين ؟

ولماذا لم يتصوروا أبداً أن من يبحث فى القضايا الطبيعية ، ويناقش بعض الافتراضات المثارة بشأنها ، وينقد بعض أوجه النظر فيها يكون بالضرورة ملحداً ؟ ! بل بالعكس إن الواقع يقول لنا إن الفلسفة الصحيحة طالما مهدت الطريق إلى الارتباط بالحقيقة ، أى إلى الارتباط بالله تعالى وهو جوهر كل الحقائق الطبيعية ، بل هو الحقيقة الأولى والأخيرة للحياة .

---

(١) عن نفس المرجع ص ٢٤٠ .

فهؤلاء الفلاسفة من مستوى ابن رشد، وابن سيناء، وأبو يعقوب الكندى فى الشرق، ومستوى ديكارت، وكنط، وبرجسون فى الغرب، لهم فضل لا يدانيه فضل آخر : وهو تذليل الطريق إلى اليقظة العقلية التى فتحت النوافذ على معرفة الحقيقة. وهو ما قد يقتضى أحياناً نقد بعض المعارف والقيم السائدة لإزالة كل ضروب اللبس، وكل مصادر الخطأ وسوء الفهم، وما أكثرها.

ولو لم يناضل هؤلاء الرواد الأوائل — وأمثالهم كثيرون — لتعبيد الطريق إلى البحث وإلى المعرفة الصحيحة، لما تقدمت الإنسانية خطوة واحدة نحو الأمام، ولما كان إنسان العصر الحالى أكثر رغبة فى الوصول إلى الحقيقة العلمية، وأكثر قدرة على هذا الوصول من أجداده الأقدمين، بدءاً من العصر الحجرى أو البرونزى، حتى القرن العشرين.

وإذا كان ثمة تساؤل يصح أن يثار فى هذا المقام فهو أين نحن الآن من منهج النقاش والتحليل الذى وضعوه؟ إنى لا يمكن أن أزعم أبداً أن هذا المنهج كفيل بالوصول إلى جميع الحقائق، ولكن بمقدورى أن أؤكد أنه كفيل بتبديد الكثير من مصادر اللبس والخطأ وسوء الفهم التى طالما ضللت خطى العلم والعرفان فى مواضع عديدة، وفى حقب كثيرة من التاريخ. أما الوصول إلى «جميع الحقائق» فهو هدف فوق مقدور البشر بمراحل كثيرة، وسيظل كذلك طالما كان الإنسان إنساناً بكل قدراته المحدودة، وملكاته العاجزة.

* * *

ولا تقل فى هذا الشأن إن الغرب غرب والشرق شرق، وأنهما لن يلتقيا أبداً، فلسنا هنا بالمرة إزاء أنظمة اجتماعية، أو تقاليد خاصة، أو أوضاع تاريخية معينة... كلا بل نحن إزاء نواميس طبيعية للمعرفة، وللتعقل، وللاعتدال، وللتطور، وللحرية. وهى نواميس لا تعرف شرقاً ولا غرباً، ولا تفرق بين شمال وجنوب. شأنها شأن قوانين المنطق الصحيح، ومعطيات العلوم الإنسانية، والطبيعية، والرياضية.

فكل جهود العلم والفلسفة معاً ما هى إلا معالم مضيئة للتوصل إلى محاولة كشف النقاب عن هذه النواميس الطبيعية المشتركة بين الشرق والغرب ، وبين الشمال والجنوب . وللإفادة من هذا الكشف فى تذليل بعض صعوبات الحياة ومتاعبها أمام الجميع بنفس المقدار .

ولا ينتقص من هذه الحقائق شيئاً أن يتطور منهج العلم أو الفلسفة من منهج نظرى صرف كما كانت الحال من قبل إلى منهج وضعى صرف كما هى الحال الآن . أى قبل أن يتطور من منهج يعتمد على محض مضاربات الاستنتاج العقلى الخالص إلى منهج يعتمد على أسلوب التحقيق العملى الهادئ ، مع توسيع رقعة البحث إلى أبعد مدى ممكن ، لاستخلاص العنصر أو العناصر المستقرة فى الظواهر التى هى موضوع البحث والتحقيق .

* * *

والعالم يتطور فى علمه وفى فلسفته ، ونحن ننظر إليه فى عدم اكتراث ، وكأن سنة التطور لا يصح أن تسرى على الشرق كما سرت على غيره . أو كأن بمقدورنا أن نفرض على العالم أجمع الإغلاق والتراجع عن التطور العلمى . . . ثم هل يرضينا أن يقال إننا قد أصبحنا عبئاً ثقيلا على حضارة الروح التى كان هذا الشرق هو صانعها ، وموطنها ، وراعيها الأمين لمدى المئات ، بل لمدى الآلاف من السنين ؟ !

ثم هل يرضينا أن نتنازل عن الإفادة من كل إنجازات العلم المعاصر فى سبل النقل ، والطب ، والصناعة ، والطباعة ، والزراعة ، والرى ، ومكافحة الآفات ومواجهة الويلات فى جميع المجالات ؟ ...

وإذا كنا لا نتنازل عن الإفادة من هذه الإنجازات ، وليس بمقدورنا ولا فى صالحنا هذا التنازل فى أى مجال منها ، فلماذا يكون موقفنا غير ذلك فى نطاق هذا المجال الحيوى المترامى الأبعاد ، العميق الآثار ، ألا وهو مجال الباراسيكولوجى ؟ قد يتصور البعض خطأ أن للاعتقاد كلمته فى هذا الشأن ، وهو ما يقتضينا وقفة كافية عند هذه القضية بالذات فى الفصل الثانى .

الفصل الثانى

فى موقف الاعتقاد

من هذا الصراع بين القديم والجديد

موقف الاعتقاد من تطور العلم

إن خطورة إنجازات البار اسيكولوجى ليست مستمدة من وثيق اتصالها بالعلم الحديث فحسب ، بل أيضاً من وثيق اتصالها بالمعطيات المعروفة للفلسفة . وذلك لأنه لا ينبغى أبداً التسليم بوجود فواصل حقيقية بين العلم ولو كان وضعياً من جانب ، وبين الفلسفة من جانب آخر . فالعلم الذى ينأى عن التفكير الفلسفى هو فى حقيقته جهل مستتر برداء العلم ، أو هو على أحسن الفروض علم مفكك ضائع . والفلسفة التى تنبو عن الارتباط بحقائق العلم إنما هى نوع من المغالطة التى لا تملك سوى تزييف الأسباب والذرائع .

ولقد حاول لفيف من قدامى الفلاسفة الربط بين الفلسفة والاعتقاد ، ومنهم أبو الوليد بن رشد (٥٢٠ — ٥٩٥ هجرية) فى الشرق كما سلف القول ، والقديس أوغسطين (٣٥٤ — ٤٣٠ ميلادية) فى الغرب ، لأنهم قدّروا ولا ريب أنه لا محل للتعارض بينهما ، إذا كان منهج التحليل المنطقى يسود هنا وهناك سيادة حقيقية خالية من الغرض ، أو من الارتباط المسبق بالأغلال والقيود .

وليس معنى ذلك أنهم نجحوا دائماً ، بل لقد اخفقوا فى الكثير لأن المعطيات العلمية الصحيحة كانت تعوز المفكرين القدامى حين لم تعد تعوز مفكرى العصر الحاضر ، بعد التقدم الباهر الذى أحرزته العلوم الوضعية .

وذلك حتى مع التسليم بأن رسالة الاعتقاد هى غير رسالة الفلسفة ، وأن دور الاعتقاد —

حسبما لاحظه اسبينوزا Spinoza هو « تكوين الأخلاق وتطهير القلب ، أما دور الفلسفة فهو إرشاد العقل وإمداده بالمعلومات . وعندما يتكفل الاعتقاد بتعليم الحقائق العلمية فإن دوره ينسخ الأغراض ذاتها التى قام لأجلها الاعتقاد » .

* * *

والفواصل بين الفلسفة والعلم مصدرها الأصيل هو أن الفلسفة عرفت أسلوب التفكير المنطقى الناقد المترابط ترابطاً كافياً منذ عهود الفلاسفة الأقدمين الذين أضاءوا هذا السبيل ، وحملوا مشعل الفلسفة وضاء فى وقت كان العالم كله يفتقد فيه هذا الأسلوب .

أما العلم فلم يعرف نفس هذا الأسلوب إلا فى تاريخ حديث نسبياً ، ولم يزدهر فيه هذا الأسلوب ازدهاراً كافياً إلا منذ قرنين ونيف ، فجاءت تترى كشوف العلم الباهرة ، خصوصاً فى مجالات الكشف عن الكثير من أسرار المادة والطاقة .

ومثالها مجال البحث فى أسرار الظواهر غير المألوفة ، فلم يعرف البحث هذا الأسلوب إلا منذ قرن ونصف ، وبالذات منذ بدأ ظهور نتائج تحقيقات هذه الظواهر بعد أن اجتذبت إليها صفوة من الفلاسفة والعلماء والمفكرين الذين تعودوا على أسلوب التفكير الوضعى المترابط ، فأصبح فطرة فيهم وطابعاً مميزاً لهم فى محاولة الوصول إلى بعض حقائق الوجود . ثم نقلها إلى عقول معاصريهم فى شجاعة وإصرار ، ومنها كل ما جمعوه من معرفة ومن اختبار .

ومن أقدم أولئك المصلحين أبو الفلاسفة سقراط الذى كان عليه أن يواجه اتهاماً خطيراً : وهو أنه ينادى بأننا ينبغى أن نحيا طبقاً لمنطق العقل بما نجمعه من معرفة ومن اختبار . ولقد أيقن سقراط فى محاكمته أن المتهم لم يكن هو وحده بل كان العقل متهماً معه ، ومع العقل العلم والفضيلة أيضاً . وعندما أعدموا سقراط مات سقراط لكن بقى العقل وبقيت الفضيلة ، لكى يدينا من أدانوه إلى يومنا هذا ، وإلى آخر يوم تقوم فيه قائمة لأى عقل ولأية فضيلة !

فكم متهم فى التاريخ تراءى له فى نبل وشجاعة أن يصرخ فى وجه قضاته قائلا :

«أنى لأطلب منكم أيها الأصدقاء أن تعاقبوا أبنائى ، وأن تقلقوهم كما أقلقتكم أنا إذا كانوا يعنون بالثراء أو بأى شىء آخر أكثر مما يعنون بالفضيلة. أو إذا كانوا يزعمون أن لهم قيمة حين لا تكون لهم قيمة . . . لقد أتت ساعة الفراق بينى وبينكم ، وكل منا إلى طريقه . . أنا للموت وأنتم للحياة : والله وحده هو الذى يعلم أى الطريقين أفضل » .

* * *

وكل ما يتصل بالأبحاث الحديثة فى البارا سيكولوجى قد تم تمحيصه بعناية خلال حقبة من الزمان لا تقل عن قرن ونصف الآن . وجميع الافتراضات والاحتمالات المثارة قد بحثت ، وخضعت لكل صور التحقيق العلمى ، بما فى ذلك احتمال تداخل كائنات غيبية مجهولة أو معلومة فى إحداث الظواهر الروحية. وفى النهاية صمدت على كل صور المكابرة والعناد دعوى خلود النفس الإنسانية ، وهى تقع فى الأساس من جميع العقائد والمذاهب .

وقبل هذا الصمود كانت جميع العلوم تصاغ على محاور محض مادية وإلحادية بالأقل منذ قرنين سابقين . وكنا نؤيد ونساند — على غير وعى منا — هذه المسيرة الإلحادية عن طريق الاقتباس والتأليف والترجمة، والارتباط « بالمعطيات » الخاطئة التى كانت تقع فى الأساس من هذه العلوم نفسها . مع تلقينها للشباب فى المدارس والجامعات بوصفها من « البديهيات » التى لا تقبل اعتراضاً ، ولا جدالا .

والآن بعد أن حولت هذه العلوم مسيرتها إلى محاور روحية مغايرة لمحاورها البالية نحاصرها بكل حماس وإخلاص ، ونوصد فى وجهها المنافذ بلا بحث ولا دراسة ؟ ! فهل فى هذا الموقف الجديد أى منطق ، أم أنه يمثل ذروة الغرابة والتناقض ؟ ! . . .

وفى هذا المقام لم تتناقض المحاور الحديثة مع نفسها كلما سئلت عن مصير النفس الإنسانية ، وعن ترددها بين عوامل للسعادة وأخرى للشقاء ، وبين عوامل للتخلف وأخرى للارتقاء . كما لم تتناقض مع حقائق الاعتقاد فى كل نقائها الأصيل ، وبعد نأيها عن كل وهم دخيل إليها بفعل مرور الأيام وتعاقب الأجيال.

بل على العكس من ذلك لقد جاءت هذه المحاور الحديثة لكي تساند الرسالات السماوية مساندة صريحة ، فى الحديث عن القدرة الخالقة غير المتناهية التى تحكم هذا الكون الفسيح بحكمة تسمو على مداركنا بما لا يقاس . وفى هذه المعانى يتحدث الآن الفلاسفة الروحيون بكل إفاضة وإخلاص ، وبكل إشراق وتفاؤل بمصير الإنسان بعد أيام طوال أو قصار .

وهؤلاء الفلاسفة الروحيون — كما يقرر الدكتور عثمان أمين — « هم هداة الإنسانية الحقيقيون الذين يدعوننا دائماً إلى الاعتقاد بأن للكون إلهاً لا متناهياً، واسع العلم والقدرة والرحمة . وأن العالم لا يتحرك مصادفة واعتباطاً ، بل يسير كل شىء فيه إلى أحسن مما كان ، ولا يمكن أن تكون خاتمة الدراما الإنسانية إلا استكمال السعادة مع تحقيق السلام .

والفلاسفة بهذه النظريات المشرقة المتفائلة يمسحون على جراح نفوسنا، ويهدئون من ثائرة خواطرنا ، وكأنهم يدعوننا إلى أن نمد البصر إلى السماء ذات النجوم : فهنالك فوق ظلام القهر والشر والمادة تتلألأ معانى الحرية والحق والكمال . تلك المعانى هى النجوم اللوامع تضىء للإنسانية حياتها ، وتشيع الدفء فى قلوبها ، وتضع فى نفوسها آمالا كباراً »[1] .

عن الروح بين ثلاثة آلاف عقيدة ومذهب

وهذه النجوم اللوامع التى تضىء للإنسانية حياتها عبارة عن قضايا موضوعية إلى أبعد مدى متصور ، وخاضعة لكل صور الحوار والنقاش . وهى — نظراً لوثيق ارتباطها بمنهج البحث الوضعى المحايد — تغاير على نحو أو آخر بعض الإجابات التى قدمها فى هذا الشأن أرباب الاتجاهات والآراء المتنوعة منذ فجر التاريخ حتى الآن .

وهذه الاتجاهات لا يقل مجموعها حالياً عن ثلاثة آلاف اتجاه ومذهب منتشرة

---

(١) عن مؤلفه بعنوان « محاولات فلسفية » طبعة ٢ سنة ١٩٦٧ ص ١٣٧ .

فى جميع أرجاء الأرض. و غالبية الاتجاهات و المذاهب انتحلت لنفسها امتيازاً خاصاً ومعاملة استثنائية لا يصح أن يشاطرها فيها أرباب أى اتجاه أو رأى آخر .

بل إن كل نحلة منها قد استولت على مفهوم الألوهية — وهو مفهوم يعلو على مستوى أى فكر بشرى — لخدمة أهدافها ، بأن صنعت لنفسها إلهاً شخصياً خاصاً بها ، متحيزاً لها ، متضامناً معها ، عاملا على مرضاتها ، متجاوباً مع انفعالاتها ، وكبريائها وأهدافها ، ساهراً على إسعادها وسحق أعدائها . . . حتى لقد بعد مفهوم الألوهية — فى الغرب والشرق بنفس المقدار — عن العدل ، والحكمة ، والرحمة ، والمغفرة .. وعن سائر تلك الصفات الجليلة التى تسبغها بسخاء شتى الاتجاهات والآراء على هذا المفهوم الإلهى نفسه .

وفلسفة الخلود تناضل فى هذا الميدان بالذات لمحاولة إذابة تلك الحواجز النفسية الشامخة التى طالما أشعلت نيران الحروب الغبية ، والصراعات الدموية التى لا تمت بصلة إلى تلك الفلسفة الوضعية التى تحاول الانتماء إلى بعض حقائق الوجود الروحى النقى العادل التى نلمسها بأنفسنا حتى فى حياة كل يوم . بل تنتمى تلك الحواجز النفسية الشامخة إلى تعدد الاتجاهات والآراء ، وتنوعها لأسباب جغرافية ، وتاريخية ، واجتماعية ، ووجدانية كثيرة .

* * *

وهذه الاتجاهات والآراء التى تبلغ الثلاثة آلاف — والموزعة الآن على سطح هذا الكوكب الضئيل التائه فى رحبات الأزل الفسيح ، بين آلاف الملايين من الكواكب الأخرى التابعة لشتى المجموعات الشمسية والمدن النجومية — ليست حديثة كلها . بل منها ما يرجع إلى بضعة آلاف سنة خلت مثل الديانة البوذية التى تفرعت منذ هذا التاريخ إلى المئات من المذاهب والنحل المختلفة(١) .

وقبلها كان يوجد بلا أدنى ريب — الآلاف من الاتجاهات والآراء التى قد يرجع تاريخ بعضها إلى بدء تحول الإنسان من مرحلة السحر إلى مرحلة الدين . والمرحلتان متداخلتان معاً ، بلا حدود فاصلة بينهما . وكلتاهما مرتبطتان بمشاعر مشتركة ، وسابقتان

(١) إذ ولد بوذا حوالى سنة ٥٦٤ وتوفى حوالى سنة ٤٨٣ قبل الميلاد .

على تحول الإنسانية كلها إلى مرحلة العلم الوضعى ، التى هى أحدث مراحل التطور الإنسانى كلها .

ومرحلتا السحر والدين لهما وثيق اتصال بانفعالات غريزة الإحساس بالمجهول ، التى تشير كل الدلائل إلى أنها مرتبطة بدورها بشعور الإنسان منذ صباه بأن له انتماء فطرياً ينبغى أن يعتز به ، مثل اعتزازه بالانتماء إلى وطنه ، وجنسه ، وأسرته .

عن الصلة بين العلم والاعتقاد

ولا شيء بمقدوره أن يقوم بهذا الدور الخطير — وهو إذابة تلك الحواجز النفسية بين الشعوب — إلا إخضاع الوجدان لرقابة العلم . أما العكس فهو يؤدى إلى نتيجة عكسية : وهى مروق مشاعر الوجدان عن أهم حقائق الوجود ، ومعها المروق عن استخدام الاستدلال الواعى ، وعن التعرف على الفضيلة الحقة وأين توجد ، وكيف تكون ، ناهيك بالقدرة على التطبيق الجاد لها .

وذلك مع أن رقى مشاعر الوجدان هو أسمى هدف تسعى كافة الاتجاهات الإنسانية إلى تحقيقه ، ناهيك بكل مبادىء التربية الصحيحة ، والأخلاق الفاضلة منذ استيقظ فى الإنسان صوت الضمير ، عن طريق نمو نفس هذه الغريزة : وهى غريزة الإحساس بالمجهول .

ونضج العقول هو أيضاً هدف توأم لرقى خلجات النفوس . وهو يمثل مرحلة متقدمة فى تطور الإنسان . وهذه المرحلة سمت به كثيراً عن الزواحف والعجماوات وجعلت منه سيداً لها متحكماً فيها ، بقدر ما هو متحكم فى العديد من طاقات الطبيعة ، وكنوزها الخبيئة التى سخّرها لراحته وخدمته ، وتخفيف آلامه وأسقامه . ويستوى فى ذلك قاطن خط الاستواء مع قاطن القطب الشمالى ، وأخو الجهالة مع صاحب المؤهل العالى ! ! . . .

ولا تفاضلن فى هذا الشأن بين عالم وجاهل ، أو بين عاقل وناقص عقل : فالكل راضٍ بحاله ، واثق من نفسه ، عملاق فى الشعور ، وفى العقل ، وفى التقدير والتدبير .

وقد يشقى فى تدبير الأمور العالم ويسعد الجاهل ، ويبكى الإنسان الفاضل ويمرح زهواً — الأفاق أو القاتل ، ولذا قال الشاعر بحق :

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله   وأخ الجهالة فى الشقاوة ينعم !

* * *

وهكذا من اليسير أن يتحول الانتماء الوجدانى فى أية صورة من صوره من أداة نضج وارتقاء إلى أداة تخلف وجمود . بل قد يتحول هذا الانتماء إلى أداة فرقة وبغضاء ، وسلاح حرب شعواء حتى بين أبناء الاعتقاد الواحد والمذهب الواحد . فيمارس أبناؤه كل صور القسوة والدهاء مع مخالفيهم فى الرأى لأسباب لا تمت إلى الاعتقاد الأصيل بأية صلة ، بل تمت — بكل الصلات — إلى صور شتى من الضعف الإنسانى .

وكل اعتقاد عرف التحول والتكيف مع ظروف المكان والزمان . وكان التكيف مع ظروف المكان أسرع وأوضح من التكيف مع ظروف الزمان . وذلك بالنظر للتفاوت الشديد بين المكونات الروحية لكل شعب من شعوب العالم .

ولذا كانت مفاهيم المسيحية فى الحبشة غيرها فى ألمانيا ، أو السويد ، أو اليونان . ومفاهيم الإسلام فى الجزيرة العربية غيرها فى الصومال ، أو ماليزيا ، أو إيران . ومفاهيم البوذية فى الهند غيرها فى كوريا ، أو الصين ، أو اليابان . . . وهكذا الشأن — بلا استثناء فى جميع المذاهب والأديان — منذ عرف وجدان الإنسان طريقه إلى صيغة أو أخرى من صيغ الإيمان بالله وبالخلود .

وفى هذا الشأن يقول الفيلسوف جوستاف لوبون Gustave Lebon « لا رجل يجهل أن جميع الديانات العظمى كالبرهمية والمسيحية والإسلام أسفرت عن دخول الناس أفواجاً فيما يلوح أنه اعتنقها من أمم بأسرها .

ولكن إذا ما أوغل المرء قليلا فى دراسة ذلك لا يلبث أن يبصر أن الذى غيرته الأمم على الخصوص هواسم دينها القديم نفسه . وفى الحقيقة إن المعتقدات المنتحلة عانت من التحولات الضرورية ما تكون به ذات صلة بالمعتقدات القديمة التى حلت محلها ، والتى لم تكن غير إدامة لها .

وما تخضع له المعتقدات من تحول عند انتقالها من أمة إلى أخرى هو من القوة فى الغالب ما يكون به الدين المنتحل حديثاً غير ذى نسب واضح بالمعتقد الذى احتفظ باسمه . . . . ولم تخرج ديانات أوربة عن السنة القائلة بتحول الأديان وفق روح الأمم التى تعتنقها . وكما فى الهند ترى فى أوروبة أن حرفية العقائد التى أثبتتها النصوص قد ظلت ثابتة ، غير أن لهذه النصوص صيغاً عامة يفسرها كل عرف على شاكلته »[1] .

* * *

ذلك أن كل إنسان قد تعود أن يطوِّع مفاهيمه الخاصة حتى تتلاءم مع مكونات عواطفه وميوله الطبيعية ، وحتى تتجاوب تماماً مع انفعالات فطرته واكتسابه . ولذا نجد أن كل شخص يتقبل عدة جوانب من مفاهيم اعتقاده الخاص ، ولا يتقبل — صراحة أو ضمناً — جوانب أخرى عديدة منها ربما تتجاوزها فى العدد وفى القيمة . وبالتالى نجد أن لكل شخص موقفاً — يكاد يكون خاصاً به — من شتى جوانب الانتماء الذى ينتمى إليه ، ومفاهيمه المتنوعة ، سواء أكانت أصيلة فيه أم دخيلة عليه .

ونتيجة هذه الحقائق كلها أن يتضح تماماً أن العبرة فى أى اتجاه ليست بمحض الانتماء ، بل هى بالتطبيق الأمين للأخلاق الفاضلة . والتطبيق ليس بالأمر الهين أو اليسير ، ويتطلب الكثير من المثابرة والمران ، ناهيك بالقدرة على التعقل والاعتدال . وهذا هو بيت القصيد فى أية فلسفة أمينة تبحث فى مصير الذات ، بعد أيام قصار أو سنوات طوال .

أما ذريعة الانتماء — التى يثيرها دائماً المتشددون فى الحرف — فهى ذريعة واهية . وما أيسر أن تخدع الإنسان وتضلل خطاه ، إلى طريق كله رياء مع الذات ، قبل أن يكون الرياء مع الآخرين ، ولو كانوا من أرباب نفس المذهب والدين . وإلى طريق كله قسوة مع الذات تؤدى أيضاً إلى القسوة على الآخرين ، ولو كانوا من الأهل والأقربين .

---

(١) للمزيد راجع : جوستاف لوبون « السنن النفسية لتطور الأمم » . ترجمة عادل زعيتر ١٩٥٧ صفحة ٨٧ — ٩٠ .

لكن ثمة انتماء وحيداً يسيطر على مشاعر الإنسان ويقود خطاه ، فى طريق الحياة الطويل المحفوف بالصعاب والأهوال. وهو انتماء الإنسان إلى ذاته الحقيقية ، بمفهوم انتمائه إلى تكوينه الوجدانى — الشعورى واللاشعورى— الذى وصل إليه بكفاحه الشاق العريق ، وما اكتسبه من خبرات ، وما مر به من أمور ، وما اجتازه من امتحانات عسيرة أو يسيرة خلال حقب عديدة ودهور .

وبالتالى فإن هذا التكوين يمثل فى نهاية المطاف ذروة ما حصل عليه الإنسان من تطور فى خلجات نفسه، ومن نضج فى ملكات عقله . فهو حصيلة المزايا التى اكتسبها تدريجياً على الأمد البعيد ، والمثالب التى عجز عن التخلى عنها رغم الفرص التى صادفته فى أحداث تتراوح دواماً بين حدث شتى وآخر سعيد .

ومن هنا يظهر تماماً أن الانتماء للجنس ، أو للوطن ، أو للاعتقاد يلعب دور الوسيلة لا دور الغاية ، ودور الطريق لا دور المقر أو المسكن ، ودور المصباح الذى قد يستخدمه الإنسان فى الوصول إلى ذاته على نحو خاطىء أو صحيح ، لا دور الإرث الذى لا فضل لإنسان فيه على آخر ، سواء أكان الإرث زاخراً بالكنوز أم مثقلا بالأعباء والديون .

النواميس الطبيعية أزلية ومطلقة

والطبيعة لا تعرف هنا تحيزاً ولا محاباة ، ولا تسير بلا هدف ولا ضابط . بل على العكس من ذلك تماماً تشير كل الشواهد إلى أنها محكومة بنواميس أزلية ، مطلقة ، موضوعية ، منطقية : لا مفر منها ولا فكاك . وهذه النواميس تحكم جميع الظواهر الملموسة التى تخضع لحواسنا مثل الضوء ، والحرارة ، والكهربائية ، والمغناطيسية ، والجاذبية ، والنسبية . . . . وهى بنفس المقدار تحكم جميع الظواهر غير المألوفة التى يدرسها العلماء الآن بالضبط كما يدرسون ظواهر النفس، والفيرياء ، والكيمياء . . .

فأى انتماء هنا لا وزن له ما لم يمثل ابتداء انتماء صحيحاً إلى هذه النواميس الطبيعية المطلقة التى تتطلب من كل ذات أن تبذل غاية جهدها فى سبيل تطور نفسها نحو

المزيد من الحب ، من التواضع ، من الوداعة ، من إنكار الذات ، من السيطرة على الملذات ، من البحث عن المعرفة ، وفى الجملة من رقى خلجات الشعور والضمير ، والموازنة والتقدير .

فنواميس الروح والخلود تعمل من وراء هذا كله، وهدفها الأسمى هو تحقيق هذا كله عن طريق كل نفس ناطقة . لأنها تمثل قبساً كونياً ليس من طبيعته الذبول أو الخمود ، وإن كان من طبيعته — فى أحيان كثيرة — التمرد والمروق ، والعناد أو الجمود .

وهذه النواميس الكونية أزلية بمقدار ما هى مطلقة وموضوعية. فهى لا تعرف تمييزاً بين شعب وآخر ، وسلالة وأخرى . وهى تسود الكون حتى قبل خلق هذا الكوكب التعيس الذى فيه نتعايش ، ونتقارب أو نتباعد . وحتى إذا قدّر لأى كوكب البقاء أو الفناء ، فإنها فى النهاية نواميس للتعارف بين بنى البشر ، ولسيادة البر والتقوى فيما بينهم . وهذا هو ما أكدته الآية الكريمة « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وهو نفس ما أكده الرسول الكريم فى خطبة الوداع عندما أعلن — بكل بلاغة وإبانة — قائلا « أيها الناس إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على أعجمى ولا لعجمى على عربى ، ولا لأحمر على أبيض ولا لأبيض على أحمر ، إلا بالتقوى » .

وما هى التقوى ؟ أليست هى البر ؟ أليست هى المحبة ومكارم الأخلاق ؟ أليست هى الإخاء الإنسانى العام الذى لا يفرق بين عربى وأعجمى ، أو بين أحمر أو أبيض من بنى البشر ؟ . . .

وأين البشرية الآن من هذا كله ؟ ! وأين هى بالتالى من المحبة ، والتراحم ، والتعاون . . . أين هى من التقوى التى هى غاية الغايات فى كل المذاهب والاتجاهات ؟ ! كما هى غاية الغايات فى كل هذه النواميس الأزلية المطلقة التى بدعتها قدرة الله تعالى ، ولم يبدعها أحد من بنى البشر .

* * *

وفى هذا الشأن تنبغى مراعاة وجود فارق ضخم بين منهج هذه الآلاف الثلاثة من المذاهب والاتجاهات السائدة فى العالم الآن، وبين منهج الفلسفة الوضعية للروح . وهذا الفارق هو أن هذه الآلاف الثلاثة من المذاهب والاتجاهات تطالب أصحابها بأن يؤمنوا بلا حوار ولا نقاش . أو بحوار ونقاش ينتهيان فى جميع الأحوال إلى إرضاء الذات ، وإلى التسليم بتفوق أى من هذه الانتماءات . وسيادة مفاهيمها الخاصة على كل صيغ الانفعالات والاتجاهات الأخرى المليئة طبعاً بالأخطاء وبالثغرات ، فى النتائج والمقدمات ! !

أما الفلسفة الوضعية للروح فإن لها موقفاً مبايناً فى المنهج نفسه ، لأنه لا يمت فيها بأية صلة إلى إرضاء أى جانب من الانفعالات أو الاتجاهات . بل إن هذا المنهج ينادى الأفراد والجماعات قائلا : أن اختبروا بأنفسكم كل ظواهر الحياة المألوفة كما تختبرون كل ظواهر الوجود المشهود . وادرسوها ، وحللوها ، وجرحوها ، وأخضعوها لكل صور النقاش المنطقى ، والنقد الذاتى الذى لا يمالىء أى إنسان ، ولا يعرف شيئاً اسمه خداع الذات ، أو إرضاء الأهواء والنزوات .

وبهذا المنهج الوضعى — الموضوعى قفزت معارف الإنسان قفزاً إلى الأمام ، وحقق الإنسان كل فتوحاته العلمية المتتابعة التى خففت الكثير من آلامه ، وحجبت عنه العديد من مصادر جهله وظلامه . وطورت أخلاقه أيضاً فى العديد من جوانبها نحو آفاق أوسع مما كانت ، ونحو إنجازات أجدى من تطلعات الماضى القريب أو البعيد.

وبذلك فإن الفلسفة الوضعية للروح ليست بالمرقفلسفة للإيمان المطلق بمفهومه السائد ، ولا للإذعان الكامل بمفهومه المتوارى خلف شتى الانفعالات المتوارثة أو المكتسبة . بل هى فلسفة علمية لا تعترف إلا باستخدام المنطق على أوسع نطاق ، وإلا بتحكيم المنهج الوضعى — الموضوعى فى تحليل الوقائع ، بعد توسيع رقعة البحث إلى أوسع مدى ، توصلا إلى محاولة إعطاء إجابات واضحة مترابطة ، عن أسئلة يلزم أن تثار عند وصول العقل والوجدان إلى مرحلة متقدمة من النضج والإتقان .

« قل الروح من أمر ربى »

هذا وقد تعرضت فيما سبق لنطاق « علم الروح الحديث » وتحديد موضوعه ،

مبيناً كيف أن تسميته بعلم تحضير الأرواح تسمية غير صحيحة ، وقد أساءت إليه إساءات بالغة بجدارة تامة ، لأن جميع ظواهر الروح ذاتية أو تلقائية لا تخضع لإرادة الباحثين فيها[1] .

ومن يتفهم جميع الظواهر الوساطية على أنها فى جوهرها محض ذاتية spontaneous أو تلقائية automatic تزول من ذهنه أمثال تلك المخاوف القائمة على التصور السائد عند بعض الناس من أن « علم الروح » أصبح يزعم أنه أخضع الروح لقدراته الخاصة ، أو أن الروح لم تعد من أمر ربى ، بل أصبحت من أمر « العلماء » أو الباحثين . فإن هذا الخوف محض وهم لا مبرر له ، وطالما جنى جناية بالغة على مبدأ البحث العلمى ، على غير أساس من اطلاع كافٍ أو من اختبار جاد .

فالاستناد إلى الآية الكريمة « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى » استناد لا يغنى فتيلا فى محاولة إغلاق الأبواب وسد منافذ البحث والعرفان فى وجه العلماء والباحثين فى موضوعات الظواهر الوساطية كلها ، لأن كل ظواهر الوجود — المشهود وغير المشهود — تجرى بأمر الله تعالى ولا أحد سواه .

ثم إن باقى الآية الكريمة يقول « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » بمعنى أنكم لو أوتيتم من العلم بعض الشىء لحدثتكم عن الروح . وهذا أمر طبيعى لأنه وقت نزول هذه الآية لم يكن العلم قد كشف شيئاً بعد من أسرار المادة ، أو الطاقة ، أو الاهتزاز ، أو الإشعاع ، أو الأثير ، أو الذرّة ، أو الإدراك عن غير طريق الحواس ، التى كشف عنها الأسلوب العلمى فيما بعد ببطء شديد وبمشقة بالغة .

• • •

ولذا فإنه لا يوجد مفسر واحد معروف قال بالنهى أو بالحظر فى هذا الشأن ، بل لقد تناول الروح أبرز العلماء والفلاسفة القدامى مثل ابن سيناء ، وابن رشد ، وابن القيم ، والفارابى ، والغزالى ، وغيرهم ، كما تناولوا جميع المعارف والعلوم الطبيعية والإنسانية .

---

(١) راجع ماسبق فى صفحة ٨٦ — ٩٠ .

ولم يقل واحد منهم إن هناك حظراً أياً كان نوعه . لكنهم تناولوا هذه العلوم وتلك بأساليب عصرهم ، وفى حدود علمهم ومعلوماتهم . فحفظوا للبشرية تراثاً مجيداً من الإيمان بالروح والخلود، وعصموها من دعاوى المادية والإلحاد خلال حقب طويلة . وهى مأثرة يسجلها التاريخ البشرى لهم بكل فخار وإكبار حتى هذه الساعة .

وكانت جميع العلوم يطلق عليها وصف « علوم الكلام » لأنها كانت تعتمد على محض الارتجال والافتراض ، حتى فى الطب والطبيعيات . أما الآن فقد تحول منهج الارتجال والافتراض إلى منهج البحث الوضعى والاختبار بحكم التطور العقلى والعلمى الطبيعى ، وبحكم تفوق المنهج الوضعى على كل منهج نظرى . وإلى هذا المنهج وحده تدين الإنسانية بجميع الكشوف التى حققتها حتى الآن ، والتى خففت من آلامها وويلاتها إلى حد كبير ، ولكن أخطرها كلها كشوف الظواهر غير المألوفة .

• • •

فأما أن « الروح من أمر ربى » فهذا أمر لا ريب فيه ، ولا ينازع فيه أحد . ولكن كل شئ فى الوجود يجرى بأمر الله تعالى : كالصحة والمرض : والحركة والسكون ، والفضاء والضياء ، وكل ظواهر الطبيعة المختلفة . . . فهل كان ذلك سبباً لحظر حركة البحث العلمى ، أو يمكن أن يكون سبباً للحظر ؟ ! هذه هى ببساطة كل القضية بين أنصار البحث فى الظواهر غير المألوفة ومعارضيه .

ثم إن موضوع هذا البحث هو تحقيق مدى صحة الظواهر غير المألوفة ، مع إخضاعها لمنهج التحليل الفيزيائى والرياضى . فهو لا يمت بصلة إلى البحث فى كنه الروح أو ماهيتها ، ولم يزعم أى عالم أنه قد نجح فى كشف النقاب عن هذه الماهية .

وهو من هذه الناحية أشبه ما يكون بموضوع البحث فى ظواهر الحياة لأى من الكائنات الحية ، ولدى النباتات أيضاً . وبالتالى فهو محض امتداد وتعميق لعلم

النفس ، بمقدار ما هو محض امتداد وتعميق لسائر علوم الحياة ، ومنها البيولوجيا ، والفسيولوجيا ، والحيوان ، والنبات (١) .

وإذا أضيف إلى ذلك اعتبار هام وهو أن صيغة الآية الكريمة « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » قد جاءت بصيغة الماضي ، لا بصيغة المستقبل ، لتبين مدى صحة وترابط تلك الأسانيد العديدة التي دفعت أكبر العلماء والمفسرين في القرن الحالي إلى المناداة بصحة الظواهر الوساطية وبضرورة بحثها ودراستها ، لاستخلاص دلالاتها المحتومة ، ولم يقل واحد منهم بأن هناك حظراً دينياً ، أو شبهة حظر باسم العقيدة .

ماذا يقول أعلام الفقه والتفسير

وقد عرضت لكل ذلك في « مفصل الإنسان روح لا جسد » مستنداً إلى آراء العديدين من علماء القمة من أمثال الشيوخ الأجلاء الطنطاوى الجوهرى صاحب تفسير « الجواهر » (في خمسة وعشرين جزءاً) ، ومحمد حسنين مخلوف ، ومحمد مصطفى المراغى ، ومحمود شلتوت ، ومحمد أبو زهرة ، ومحمد بخيت ، وأحمد حسن الباقورى ، وعبد اللطيف السبكى ، ومحمد زكريا البرديسى ، وغيرهم من قمة العلماء والفقهاء (٢) . . . هذا بالإضافة إلى موقف العلامة محمد فريد وجدى الذي تبنى هذه القضية الكبرى ودافع عنها دفاعاً متواصلا ، شارحاً أسانيدها الدينية والعلمية في العديد من مؤلفاته القيمة التي لا تزال نبراساً يهتدى به في الموضوعات التي تناولتها (٣) .

* * *

---

(١) فأبحاث الباراسيكولوجي قد امتدت الآن لكي تتناول مملكة النبات على أسس متطورة . فأصبحوا يبحثون في أثر « الطاقة الروحية » في مدى إنبات البذور ، وسرعة نمو الأغصان والزهور ، وفي مدى إحساس النبات باللذة والألم (راجع كتاب « التكوين الروحى وأسرار السلوك بعد التحول من السيكولوجي إلى الباراسيكولوجي » ١٩٨٢ الجزء الأول ص ٢٥١ — ٢٥٨) .

كما اتسعت هذه الأبحاث فشملت مملكة الحيوان وظهر علم جديد يسمى « باراسيكولوجي الحيوان Animal Para Psychology .

(٢) راجع منه بوجه خاص الجزء الأول ص ٤٩٧ — ٥١٢ والجزء الثالث صفحة ٥٨ — ٩٢ وما سبق في صفحة ٤٧ — ٤٩ .

(٣) ويضاف إلى هؤلاء جميع العلماء الذين فحصوا الأشعار المنسوبة إلى روح أمير الشعراء ، وكانت نتائج الفحوص إيجابية وحاسمة في دلالة تأييد القضية الروحية ومساندتها .

وهكذا أجمع المفسرون الأقدمون والمحدثون على ضرورة البحث والتزود المتواصل من المعارف بأكبر قدر ممكن مستندين إلى نصوص عديدة ، ولم يقل واحد منهم بالجمود والإغلاق فى هذا الميدان من ميادين العرفان أو فى غيره ، ونرجو أن يكون فى إجماعهم فصل الخطاب ، حتى نتدارك ما فات ونسعى إلى ثراء العقل والوجدان ، بلا وجل ولا تراجع (١) .

ثم من قال إن الأديان السماوية قد جاءت لكى توصد أبواب التطور أمام أبنائها ، ولكى تفتحها على مصراعيها أمام أبناء الأديان الأخرى ، وبنفس المقدار أمام كل أولئك الذين يرفضون جميع الأديان ؟ ! من قال بذلك من المفسرين الأقدمين أو المحدثين ؟ ! وأين هو هذا القول وما سنده ؟ ! بل إن من لا يتفهم رسالات السماء على أنها جاءت — أساساً — لدفع البشرية قدماً إلى الأمام فى طريق التطور والارتقاء لا يمكنه أن يتفهم فيها شيئاً على الإطلاق . . .

وهذا كله يضاف إلى وظيفة هذه الأبحاث المتطورة فى إلقاء بصيص من ضوء على بعض جوانب قضية الخلود ، وهى أم القضايا كلها فى مسيرة الركب الإنسانى ، وما أدى إليه هذا الكشف من ظهور أسباب متجددة على الدوام للعزاء والاطمئنان ، ولتذويب الحواجز المصطنعة تدريجياً بين شتى الشعوب والاتجاهات ، وإقامة دعائم قوية للإخاء الإنسانى العام ، وهو ما تتطلع إليه الإنسانية بلهفة واشتياق منذ أقدم العصور حتى الآن .

---

(١) وللمزيد راجع « الجديد فى التكوين الروحى » المرجع السابق جـ ١ ص ٢١٧ — ٢٣٥ .

الفصل الثالث

فى موقف المنهج العلمى

من الصراع بين القديم والجديد

عن ضرورة التأصيل

لا ريب أن المنهج العلمى السليم ينبغى أن يلتزم ابتداء بالتحقق من حدوث أية ظاهرة عن طريق توسيع رقعة البحث فيها ، لاستخراج العنصر أو العناصر الثابتة فيها تمهيداً لتأصيلها .

والتأصيل العلمى لأمثال هذه الظواهر الهامة يتطلب أن نحيط أولا بجميع الحقائق التى تكشفت عنها دراسة سائر الظواهر غير المألوفة : مثل التجسدات التامة والجزئية ، والعلاج الروحى ، والمجلوبات والمأخوذات الروحية ، وتصوير غير المنظور ، والكتابة التلقائية ، والمباشرة ، والأصوات المباشرة ، والتخاطر ، والإلهام ، وتأثير العقل فى المادة . . . وغيرها من الظواهر التى لا تقل عنها أهمية .

وتأصيلها أو محاولة تأصيلها ينبغى أن ينطوى على إعطاء تعليل جامع مانع لكل هذه الظواهر برمتها ، حتى يمكن أن يوصف بأنه تأصيل له وزنه من الناحيتين العلمية والنفسية .

وهذا التأصيل الذى له وزنه يكاد ينحصر الآن فى حقيقة واحدة وهى الطبيعة الروحية للإنسان وللحياة بوجه عام . وهذه الحقيقة لا ينبغى التهوين منها ، لأنها أصل الحقائق ، كما هى أصل العقائد كلها ، وأصل الفلسفات الراقية منذ فجر التاريخ حتى الآن . وعن طريقها يمكن أن نقول إن العلم الرسمى قد أقدم فعلا على إحداث ثورة عارمة كفيلة بأن تطيح تدريجياً بجبال شامخة من الأخطاء العلمية طالما ضللت خطى

العلم والعرفان لآماد طويلة ، وقد آن لها أن تتوقف ، وأن تتراجع لخير الإنسانية جمعاء .

ومعطيات هذه الحقيقة الكلية كثيرة وخطيرة . ولكن لعل أخطرها كلها هو ثبوت خلود الإنسان على وجه ما ، وانتفاء الفناء . ويالها من حقيقة طالما تطلع أمل الإنسان إلى محاولة إثباتها من قديم ، لكنه لم يصل إلى هذا الهدف الثمين إلا عندما عرف كيف يتبع مقتضيات المنهج الوضعى فى دراسة جميع ظواهر الطبيعة بغير استثناء ، بما يتطلبه هذا المنهج من مثابرة ، ومن حياد ، ومن تحليل ناقد لا يرحم ، ومن روح منقبة لا تتراجع .

وإذا كان اكتشاف قانون الجاذبية ، أو الكهرباء ، أو الميكروبات ، أو المضادات الحيوية ، أو الاتصال اللاسلكى ، أو الطيران ، أو تحطيم الذرّة ، أو الوصول إلى القمر . . . يعد من معالم الطريق فى تطور العلوم الشاق الطويل — وكلها من ثمار اتباع المنهج الوضعى بكل تبعاته القاسية وتضحياته الجليلة — فإن إثبات الخلود هو أخطر المعالم كلها . وهو ذروة الذرى ، بل هو المجد الحقيقى الذى دونه بكثير كل أمجاد العلم مجتمعة ، وهو أجدرها بالعناء وبتضحيات العلماء .

ولعل فى هذا القول ما يفسر سر الاهتمام الشديد الذى يلاقيه « علم الظواهر غير المألوفة » من الهيئات العلمية فى الخارج ، ناهيك بازدهار حركة البحث الجاد فيه ، والتأليف المستنير ، وبعناية وسائل الإعلام به أيضاً .

ولا ريب أن للناطقين بالضاد يقظة قريبة فى هذا المقام الهام بفضل همة ذوى الفطنة فيهم ، وهم بحمد الله كثيرون ، وعلى أتم استعداد للنضال لأجل الحقيقة ، مهما أحاطت بها من المعوقات التى طالما أعاقت خطى التطور العلمى فى عصور الظلام .

عن تبعات المنهج العلمى

فلنتقدم إلى رحاب البحث العلمى فى ثقة تامة بأنفسنا ، وبحقنا المشروع فى التحقيق والاستكشاف . وفى ارتباط حقيقى بتبعات المنهج العلمى ، وبكل ما يقتضيه

من مثابرة ، ومن نقد ، ومن حياد ، ومن إنكار كافٍ للذات . . . وقبل كل شيء آخر بكل ما يقتضيه هذا المنهج من إحساس كامل بحرية البحث والتحقيق ، ومن قدرة تامة على ممارستها عن وثوق بأنه بغير الحرية لا يستحق إنسان نعمة الحياة ، ولا تستحق الحياة أن يحياها إنسان .

وليست الحرية هبة توهب لنا من أحد ، بل هي قبل كل اعتبار آخر نبع، ينبع من أنفسنا ، وترتوى به عقولنا ومشاعرنا ، وتحيا عليه ارتباطاتنا ومناهجنا . ولذا فمن اللغو أن نقول إن الحرية حق طبيعي للإنسان ، لأن من لا يحصل على الحرية لا يستحقها . ومن لا يشعر بها لا يمكن أن يسعى إلى الحصول عليها . ولا أعنى بذلك حرية البحث بقدر ما أعنى حرية الفكر ، و التقدير الصحيح للأمور .

* * *

وأعتى قيود الحرية لا تجئ من خارجنا ، بل من أعماق مشاعرنا الخاصة وأفكارنا ، فتبدو لنا إشراقاً وضياء ، وبأساً وانطلاقاً . وهكذا تصبح حريتنا سراباً خلاباً ، يقودنا فى صحراء الوجود إلى هدف غير موجود .

فلابد لنا إذاً من نهضة حقيقية . ولا تكون النهضة عن طريق الحناجر القوية عندما تصرخ بأننا نهضنا فعلا ، بل تكون النهضة عن طريق الإحساس الجاد بضرورة تفهم الأمور ، والإحساس الجاد بضرورة الارتباط بالحقائق النقية ، البعيدة تماماً عن شوائب «الأوهام العلمية» التى طالما أساءت بجدارة إلى تقدم الإنسان . خصوصاً كلما ازداد مع الزمن رسوخها فى الفكر والوجدان .

وفى هذا الميدان فليعمل الباحثون المخلصون ، ولينشط الساعون الجادون إلى خير الإنسان . وبغير ذلك فلا تتوقع للحياة نجاحاً ، ولا للعلم نهوضاً ، ولا للعقل ولا للوجدان أى سلام أو اطمئنان . ثم هل يصلح الرقاد والجمود ذريعة لمناهضة العلم والعرفان ، والبحث والاستقصاء ؟ ! وهل يصلح سداً منيعاً فى وجه تخفيف آلام الآخرين ، ومواجهة متاعبهم بأساليب إنسانية ، مجدية ، متطورة فى العديد من ميادين تأدية الخدمات وإنكار الذات ؟ !

ناهيك بتعزيز الإيمان بالله ، وبالخلود ، وبالفضيلة ، والتعرف على العديد من نواميس الله تعالى تعرفاً صحيحاً ، خصوصاً منها تلك النواميس الأخلاقية التى تحكم الكون بطريقة موضوعية مضطردة ، والتى تتجاوز فى خطورتها تلك النواميس المادية التى تحكم ظواهر الطاقة والمادة ، والتى هى موضوع العلوم الطبيعية وحدها .

* * *

فالمقام إذاً أخطر بمراحل كثيرة من أن يكون محض تسجيل لبعض الظواهر غير المألوفة للتشويق ، أو لإثارة روح الاستغراب والطرافة فى النفوس . بل هو مقام مترامى الأطراف من ناحية الظواهر التى يتناولها ، والقضايا التى يثيرها ، والمشكلات التى يتصدى لها بالأساليب العلمية الصحيحة بمنهج يمكن أن يقال فيه حقاً وصدقاً إن العلم للحياة ، وليست الحياة للعلم .

وهذه الاعتبارات مجتمعة تفسر علة الاهتمام المتزايد بهذه البحوث فى العالم أجمع ، اهتماماً ينعكس فى تزايد نشاط العلماء الباحثين والمؤلفين ، وتزايد الدور الهام الذى تلعبه المطبوعات والصحافة الروحية فى الخارج .

وقد بلغت الصحافة الروحية فى الخارج شأواً رفيعاً فى جميع البلاد ، ويكفى أن تعلم أنه يصدر الآن بالبرازيل وحدها عدد يتراوح — حالياً — بين مائتين وثلاثمائة مجلة وجريدة ونشرة روحية منتظمة معنية بالأمور الروحية . أما فى الشرق الأوسط فلا توجد — حالياً — مجلة واحدة ولا جريدة ناطقة بالضاد لتعريف الناس بهذه الأمور المفرطة فى نفعها ولزومها(١) !!...

موقف المنهج العلمى من التطور

أشرت فيما سبق إلى أن أخطر النواميس الكبرى للطبيعة هو ناموس التطور والارتقاء . وفى مبدأ وجود هذا الناموس وخطورته لا يختلف الرأى بين عالم مؤمن

---

(١) وكان فقيد الروحية الأستاذ أحمد فهمى أبو الخير يصدر مجلة « عالم الروح » شهرية منتظمة من سنة ١٩٤٧ إلى ١٩٦٠ ثم احتجبت برحيله . وكذلك كان الأستاذ محمد فريد وجدى يعالج أحياناً بعض جوانبها فى مجلة «الحياة» التى احتجبت بدورها برحيله. أما الآن فلا توجد صحيفة روحية واحدة فى بلادنا ! !

وآخر ملحد ، حتى وإن تفاوت الرأى بينهما عند الدخول فى التفصيلات ، وأولها هو محاولة تعليل هذا التطور والارتقاء .

ولا يتسع المقام الحالى للخوض فى هذا الموضوع [1] ، لكن يكفى القول بأن من المجمع عليه أن جميع الشعوب والسلالات عليها أن تساير مقتضيات هذا التطور والارتقاء حتى تكون أسعد حالا من غيرها ، وحتى تتجنب سطوة ناموس تنازع البقاء وبقاء الأقوى .

والارتقاء لا يجىء طفرة واحدة ، ما دام له صلة بكيفية استخدام حرية الإرادة ، التى نملك بلا أدنى ريب قدراً كافياً منها ولو كان محدوداً . بل هو ثمرة تطور طويل ينبغى أن يروى شجرته ينبوعا العرفان والإيمان مجتمعين معاً .

فلا يمكن أن يكون الارتقاء ثمرة الجمود ، ولا ثمرة الإلحاد أيضاً ، لأن الإلحاد يؤدى إلى فاقة الروح حتى فى المواهب والملكات . وأنبل هذه المواهب هو الإلهام الروحى وهو يقع وراء كل كشف خطير ، وكل حضارة حقيقية عرفتها البشرية . ثم إنه إذا كان الإلحاد خاطئاً فكيف يتأتى للخطأ أن يكون مصدراً لأى صواب ؟ !

* * *

وهذا الإلحاد أخذ يزحف زحفاً سريعاً فى السنين الأخيرة باسم تقدم الحضارة طوراً ، وباسم بعض المذاهب السياسية والاقتصادية أطواراً أخرى ، وأخذ ينتشر هنا وهناك انتشار النار فى الهشيم ، والكل عنه لاه . وكأنه ليس فى الأمر ما يستحق الاهتمام ، أو ما يستدعى أى جهد للتنوير والإقناع .

وغير مجد بطبيعة الحال أن تناقش الملحد بالنصوص وبشروحها طالما هو منكر لها من أساسها . وغير مجد أيضاً مواجهته بالقمع ، لأن القمع لا يصلح البتة أسلوباً للتنوير والإرشاد . ثم إن القمع أسلوب الضعف والهمجية ، لا أسلوب النضج والارتقاء . فليس هناك من سبيل إلا عرض براهين العلم عن صحة الإيمان بالله ، وبالرسالات ، وبالروح ، وبالخلود ، وبالنواميس الخلقية التى تحكم الكون .

---

(١) راجع ماسبق فى ص ٢٣٤ — ٢٤٦ .

ولن تجد أى براهين تضارع فى هذا الشأن تلك التى تكشفت عنها جهود الباحثين الجادين ، أو يصح أن تقارن بها . وقد لاحظ ذلك جميع الفلاسفة والعلماء الذين انتموا إلى هذا الأسلوب الوضعى الإيجابى فى تحقيق قضايا الروح والخلود . وكان بعضهم قبل هذا الانتماء أساطين كبار للإنكار وللإلحاد إلى أن اضطرتهم الوقائع اضطراراً إلى تغيير موقفهم كما أعلنوا هم أنفسهم .

والعلة فى ذلك هى أن الإلحاد يحمل فى غالب الأحيان صياغة ذات طابع أو مظهر علمى ، مثل تعليل الحياة بالمادة ، أو الخلق بالانفجار الكبير ، أو بنشوء الإنسان من البكتريا ، أو بالمصادفة . . . والحجة الأساسية لدى الإلحاد هى أننا نرى الناس يموتون جموعاً كل يوم ولا نرى واحداً يبعث من الموت . ولكن عندما نواجههم بما لا يحصى من الأدلة الحاسمة على أن الموتى يبعثون كل يوم مثلما يموتون ، وعندما تقام الأدلة موفورة وقاطعة على أن ناموس الحياة لا يعرف الفناء ، بل يعرف البقاء مع التطور من حالة إلى حالة ، فإن هذا المظهر العلمى للإلحاد ينهار من أساسه .

فإذا ما أضيف إلى ذلك أن تحقيق ظواهر الخلود أصبح فى متناول كل باحث جاد عن حقائق الأمور . كما أصبح موضوع نشاط الجمعيات والجامعات ومراكز البحث الراقية المنتشرة فى كل مكان ، لتبين أن حصار الإيمان للإلحاد حصار لا يرحم ، وأن شروق شمس الحقائق الروحية كفيل وحده بتبديد ظلمات العناد والإنكار التى ضللت مناهج البحث العلمى خلال قرنين من الزمان ، فجعلت الحياة نوعاً من الجحيم بالقضاء على كل أمل مشروع فى مستقبل مشرق بإشعاعات الأمل ، والعدل ، والرحمة . وكذلك اللقاء الحار لجميع الأعزاء والأحباء بعد لوعة البعاد وطول العناء . .

ويقع فى الأساس من الجهد المطلوب لتحقيق هذه الظواهر غير المألوفة توافر قدر كاف من البصيرة النافذة ، ومن حب الحقيقة ، ومن إنكار الذات . ولو إلى حد ما كفيل بأن يسمو بالإنسان إلى مستوى السيطرة على ملذاته ، وشهواته ، وتطلعاته الجوفاء ، على قدر طاقته كإنسان ناضج العقل والأخلاق .

وإنكار الذات — ولو إلى حد ما — يقع وراء كل هذا البنيان العلمى الشامخ الذى تعيش البشرية فى كنفه الآن . نعم فإن التطور الذى يحققه العلم يوماً بعد يوم — حتى ولو ظهر للعديدين بطيئاً متثاقلا — لا يجئ مصادفة ولا اعتباطاً ، ولا هو من نتاج الأنانية وحب الذات ، ولا هو أيضاً من ثمار الخمول والتكاسل .

بل إن الباحث الجاد عن الحقائق يلزمه أن يتحلى بقدر كاف من البصيرة النافذة ، مع حب الحقيقة ، مع إنكار الذات ، مع النشاط والمثابرة الشاقة . ويلزمه فى كثير من الأحيان قدر كاف من الفطرة النقية التى يكون بمقدورها أن تتلقى الإلهام والإرشاد من مصدر كل إلهام وإرشاد نقى فى هذا الوجود غير المحدود .

وبغير تضافر العديد من هذه العوامل — كلها أو بعضها — عند صفوة من الباحثين عن حقائق الوجود ، مع محاولة تعليلها وتذليلها ، لما أمكن للعلم أن يخطو خطوة واحدة للأمام فى طريقه لمحاولة الكشف عن المساتير الكبرى للطبيعة ، وذلك فى سبيل إنقاذ البشرية من بعض آلامها وأهوالها الجسام فى أكثر من مقام .

وقفة عند النواميس الطبيعية

ومع مراعاة أن الظواهر غير المألوفة هى فى جوهرها ولبها ظواهر مألوفة فى الطبيعة ، وخاضعة لنفس نواميسها ، حتى وإن تفاوتت أنواعها . لذا لا يصح وصف ظواهر الباراسيكولوجى بأنها « ظواهر خارقة للطبيعة » لأن الطبيعة لا تُخرق أبداً ، ولا يخرقها شيء سوى الأوهام والترهات .

بل هى فى الواقع محض « ظواهر غير مألوفة » أو « خارقة للمألوف » . أما من ناحية موقعها من الطبيعة فهى كغيرها من ناحية خضوعها لنواميس أزلية ومطلقة .

وشأنها فى ذلك مثلا شأن احتكاك الصوف بالكهرمان عندما يولد المغناطيسية . وقد أدت ملاحظة هذه الظاهرة — بمعرفة عيون يقظة ومتسائلة — إلى اكتشاف الكهربائية الاستاتيكية ، التى تطورت بجهود سلسلة من المنقبين عن تفسير كل ظاهرة من ظواهر الوجود إلى اكتشاف الكهربائية الديناميكية .

وبالتالى تطورت إلى تسخير أعظم طاقة فى الوجود لخدمة البشرية ، ولوضع العديد من الإمكانات الضخمة تحت تصرفها . فإن هذه الطاقة لو انقطعت الآن بغتة — لأمر ما — لتوقفت كل إنجازات العصر الهامة : و لأظلمت جميع المدن ، إلى جانب توقف كل سبل المواصلات البرية والبحرية والجوية والسلكية واللاسلكية ، إلى توقف كل السبل الحديثة فى الطباعة ، والصناعة ، والزراعة ، والطب ، والكيمياء . . .

وجميع الإنجازات الجليلة فى تاريخ البشرية تحققت بطريقة متواضعة جداً ، وكانت ثمرة ملاحظات يقظى مثابرة من أذهان متفتحة فى حذر ، ومتساءلة فى لهفة ، وراغبة فى المزيد من الارتباط بمعرفة الحقائق . مع ما يتطلبه هذا الارتباط — الشاق جداً على صاحبه — من إنكار كاف للذات ، ومن محبة كافية للآخرين ، وكلاهما ملازم للآخر تلازماً طبيعياً مثل تلازمٍ عناصر الماء أو الهواء .

وهذه هى سنة الله فى الوجود ، ولن تجد لسنته تبديلا ولا تعديلا . وهى من سنن النواميس الروحية التى تحكم الكون من وراء السنن المادية ، لكنها لازمة لنجاح الحياة فى مسيرتها التى تحير — فى كل ذرة منها — عقول المفكرين ، والدارسين ، ولو كانوا من الماديين والملحدين . . .

* * *

وتلك الصفوة من المنقبين عن المزيد من حقائق الوجود ، التى سخّرت الكهرباء لخدمة بنى البشر ، لم تكن كلها من العلماء أو من قمة المثقفين ، بل كان من أبرزهم اثنان لم يظفرا بأى قدر من التعليم : وهما الأمريكى توماس إديسون **Thomas Edison** (١٨٤٧ — ١٩٣١) والبريطانى جوزيف سوان **Joseph Swan** (١٨٢٨ — ١٩١٤) .

فلم يكن العلم الواسع كامناً وراء نجاح جهودهم فى هذا الميدان بمقدار ما كانت تكمن اللهفة على معرفة المزيد من نواميس الطبيعة . وذلك عن طريق مراقبة ما أتيح لهم مراقبته من ظواهر كانت تبدو لهم فى مبدئها مبهمة غامضة ، وبحاجة إلى تعليل وتحليل .

وهم لم يخترعوا الكهرباء ، لأن الكهرباء موجودة منذ خلق العالم ، لكنهم فحسب قد كشفوا النقاب عن بعض ظواهرها الأولى ، ويسّروا بمشقة بالغة بعض استخداماتها .

وما يزال كنه الكهرباء حتى الآن لغزاً مبهماً فى العلم . وشأنه فى ذلك شأن أبسط الظواهر وأكثرها وقوعاً وشيوعاً فى الحياة . فهى ما تزال ألغازاً مبهمة حتى هذه الساعة ، وربما حتى قيام الساعة ، ولو تعلقت الحياة بقدرة حبة القمح أو الفول على الإنبات والتكاثر .

وإبهام هذه الظواهر ، مع عجز العلوم عن إماطة اللثام عن كل أبعادها الحقيقية ، وعن ماهية النواميس الطبيعية التى تتحكم فيها ، أمر لا يحول بين العلماء وبين مواصلة جهودهم لمحاولة كشف النقاب عن المزيد منها .

وذلك الجهد سوف يستمر طالما كان فى نفوس الباحثين بعض القدرة على اللهفة وعلى التساؤل ، وبعض القدرة على رغبة الارتباط بحقائق الوجود عن طريق مراقبة ظواهره المألوفة وغير المألوفة ، لمحاولة استكشاف ماهية تلك النواميس الطبيعية التى تحكم هذه وتلك بنفس المقدار .

وقفة بين الطاقة الكهربية والروحية

وكشف « طاقة الكهرباء » — مع محاولات الإفادة منها على نطاق واسع — فى القرن الحالى يشبه من بعض نواحيه كشف « الطاقة الروحية » مع محاولات الإفادة منها على نطاق أوسع فى هذا القرن نفسه .

فإن هذه « الطاقة الروحية » هى تلك التى ألقت أضواء ساطعة على العديد من نواميس الكون التى كانت ألغازاً مبهمة فى الماضى . فقد يسّرت فهم العديد من الظواهر غير المألوفة : مثل الإدراك عن غير طريق الحواس ، والمجلوبات والمأخوذات الروحية ، وتجسدات الأرواح ، والزوائد التصويرية ، وتأثير العقل فى المادة ، والعلاج الروحى . وقدرة استشعار بعض الأمور المستقبلة ، والإيحاء . . . .

وهذه الطاقة الروحية لها صلة مباشرة « بالسيال الكونى العام » و « بالدفعة الحيوية »

élan vital . وقد تحدث عنهما بإفاضة وأصالة الفيلسوف هنرى برجسون **H. Bergson** ، كما تناولهما بالبحث العميق كل فلاسفة الروحية الحديثة وباحثيها .

وذلك لأنه بدون الحديث فى هذه الأمور يتعذر فهم بعض أبعاد النشاط الحيوى الروحى الذى يحكم هذا الكون المنظور ، ويتحكم فيه على غير وعى منا . ولسوف يظل يتحكم فيه سواء أعرفنا شيئاً عنه أم جهلناه كلية . وسواء أشعرنا به أم لم نشعر ، وسواء أنجحنا فى الإفادة منه على وجه ما أم لم ننجح .

فهو يشبه حركة الأرض ودورانها حول نفسها وحول الشمس بوصفها ناموساً طبيعياً يتحكم فى الحياة ، وبالتالى فى العديد من ظواهر الوجود المنظور وغير المنظور . كما يشبه تأثير النشاط الكهربى — المغناطيسى فى هذه الظواهر وتلك ، حتى وإن كانت كل هذه الطاقات الطبيعية المتنوعة ما تزال فى حقيقتها محض ألغاز وأسرار لم يكشف المنهج الوضعى إلا عن النذر اليسير جداً من مظاهرها الخارجية ومن استخداماتها الممكنة .

* * *

وليس من محض المصادفة أن ينشط فى هذا القرن العشرين البحث فى أسرار الكهرباء مع البحث فى أسرار الطاقة الروحية ، وأن يتكشف هذا البحثان مجتمعين عن أهم إنجازات العصر ، وعن أهم معالم التطور العلمى .

وقد أسهم فى الطفرات الضخمة التى طفرتها هذه الأبحاث استخدام أسلوب الرياضة الحديثة ، وبوجه خاص استخدام معادلات الاحتمالات **Calculation of Propabilities** على نطاق واسع .

وقد أدى استخدام المنهج الرياضى — بكل فروعه — إلى استكشاف عالم الروح رياضياً وفيزيائياً ، بعد أن كان محض عقيدة متوارثة منذ فجر تاريخ الإنسانى — ومنذ انبثق بصيص الحضارة الروحية فى هذا الوادى التعيس بنا ، والذى يضمنا جميعاً الآن ! !

على أن تطور استخدام طاقة الكهرباء على نطاق واسع فى ميادين البحث العلمى ، مع ظهور أجهزة لا تحصى تعمل بنفس هذه الطاقة ، ومع استخدام منهج الرياضة الحديثة ، قد ضاعف من مسئولية دوائر العلم الوضعى فى محاولة فك بعض طلاسم « الطاقة الروحية » وترويضها لخدمة البشرية على أوسع نطاق ممكن من الناحية العملية .

كما أمكن ترويضها أيضاً لخدمة بعض العلوم الوليدة البالغة الأهمية فى هذا المجال : ومنها مثلا علم « ما يلى الفيزياء » **Para Physics** ، و « ما وراء الحياة » **Meta Biology** . وكلها الآن تسير جنباً إلى جنب ، يخدمها منهج عام مشترك هو منهج « السيكوتروينا » **Psycho Tronics** أى « علم النشاط النووى الروحى » .

وكل هذه مناهج محض وضعية لا تعتمد — فى أى جانب منها — على الافتراض أو الارتجال . وكلها تعتبر مناهج طبيعية ، لكنها وليدة نسبياً فى الكشف عن بعض أسرار الكون .

* * *

فالمنهج الوضعى فى الواقع ما يزال فى مهده يحبو ، ويتعثر ، ويعانى ، وما يزال ينتظر المزيد من الجهد ومن العناء ، ومن حب الحقيقة مع إنكار الذات . وذلك حتى يزيح النقاب عن جانب آخر مهما كان قليلا وضئيلا ، من تلك النواميس التى تحكم الكون فى جانبيه المشهود الذى نعبّر عنه بعالم « الظواهر المألوفة » ، والكون غير المشهود الذى نعبّر عنه بعالم « الظواهر غير المألوفة » .

وهذه النواميس التى تحكم الكون فى جانبيه المشهود وغير المشهود هى تلك التى تتحكم فى مسيرة الحياة . وهى تلك التى تحمل فى لغات البشر أوصافاً شتى بين علوم طبيعية وإنسانية متنوعة .

وهى تلك العلوم التى يعاد الآن — فى دوائر العلم — صياغتها وتحريكها من جديد على محاور روحية ، مغايرة — فى العديد من جوانبها — لتلك المحاور الإلحادية البالية . وهذا ما أشرت إليه فى أكثر من موضع سابق مدعماً بالأسانيد التى لا يعارضها الآن إلا نفر قليل من « أشباه العلماء » ، بحسب وصف الفيلسوف هنرى برجسون .

وهو وصف أطلقه على أولئك الذين يرفضون قبول أى تطور علمى منطقى ، مهما جرى فى الاتجاه الصحيح ، وقد استخدمه بالذات فى هذا المجال المستحدث من البحث ، وهو مجال تحقيقات الظواهر غير المألوفة .

نموذج واحد من مناوئة العلم والعلماء

وهذا الموقف الجامد المناوئ لكل تطور عانى منه جميع الرواد الأوائل لعلم الروح الحديث منذ ظهور نتائج التحقيقات الأولى فيه ، لكنهم تصدوا له بكل نبل وشجاعة ، مهما نزلت المناوأة أحياناً إلى مستوى واضح من الإسفاف والكذب .

فمثلا عندما نشر سير وليام كروكس **W. Crookes** أول مؤلفاته فى هذا الموضوع بعنوان « بحوث فى الظواهر الروحية »[1] فى سنة ١٨٧٤ انطلقت الحملات الصاخبة ضده فى بعض الصحف السيارة تتهمه بالسذاجة ، وبالتسرع . بل كانت أحياناً تحاول أن تصور وجود علاقة مشبوهة بينه وبين وسيطته الأساسية فلورنس كوك **Florence Cooke** لأنه كان يصر على أن يجرى تحقيقاته معها فى منزله لا فى منزلها .

مع أن إصراره هذا كانت له أسبابه الواضحة : وهى ضرورة خضوع الوسيطة لرقابة زوجته وأولاده طيلة فترة إقامتها فى منزلهم . وخضوعها لأجهزة الرقابة والتحقيق الدقيق فى معمله الخاص ، ولعدسات خمس « كاميرات » موزعة فى أركان المعمل لرصد كل حركاتها ، فى أثناء تجسد الروح كاتى كنج **Katie King** وبعدها .

ولم ينجُ وليم كروكس من حملة الشغب رغم أنه كان يشغل أرفع مركز علمى فى بلاده ، وهو رئاسة « الجمعية الملكية لتقدم العلوم » (المجمع العلمى) منذ سن مبكرة . ورغم سمعته العلمية الضخمة لاكتشافه عدة عناصر كانت مجهولة من الفيزياء ، ولاكتشافه أيضاً الإلكترون « أى نواة الذرة » ، ولاختراعه عدة أجهزة حديثة منها « أنابيب كروكس » المستخدمة فى توليد أشعة رنتجن وغيرها . . . .

---

(١) Researches In The Phenomena of Spiritualism (London 1874).

لكن كان على كروكس أن يتحمل كل هذا الشغب الأجوف بصبر طويل وشجاعة نادرة، حتى نجح فى النهاية فى ترويض البيئات المناوئة له ولنتائج تحقيقاته الروحية فى الصحافة، وأحياناً فى داخل المجمع العلمى نفسه.

ونجح فيما بعد فى إيجاد مناخ عام ملائم لتقبل صحة حدوث هذه الظواهر غير المألوفة التى سجلها كروكس بكل السبل العلمية أثناء تحقيقات واصلها لمدة أربعة أعوام استمرت من عام ١٨٧٠ إلى ١٨٧٤، عندما أعلن صحتها فى تقريره التاريخى الموجه إلى « الجمعية الملكية لتقدم العلوم ».

وأخطر هذه الظواهر غير المألوفة كلها هى ظاهرة تجسد الروح كاتى كنج فى حضوره، وفى حضور صفوة أخرى من العلماء البارزين. وبعد أن حسم كل شك بشأنها بتسجيلها فى أربع وأربعين صورة للروح المتجسدة التقطت فى ضوء المغنسيوم الأبيض بمعرفته وبمعرفة بعض العلماء الحاضرين.

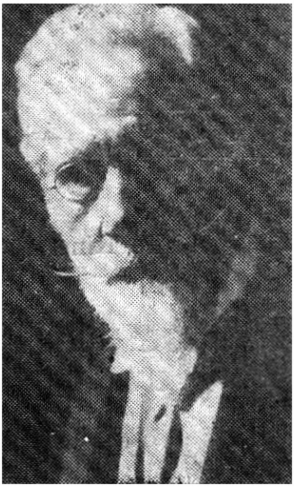

سير وليام كروكس

الروح المتجسدة تجسداً تاماً متأبطة ذراعه اليسرى

(١) للمزيد عن وليم كروكس وتحقيقاته الروحية راجع « مفصل الإنسان روح لا جسد » طبعة ٤ ج ١ سنة ١٩٧٥ ص ٥١٧ — ٥٥٠.

الدكتور جالى Gully الأستاذ بكلية الجراحين يجس نبض الروح كاتى كنج حال تجسدها التام

الوسيطة فلورنس كوك

* * *

ولما انتهى هذا الشغب الأجوف أخذت تظهر إرهاصات تحول تدريجى فى دوائر العلم . ناهيك بدوائر الإعلام فى بلاده وخارجها . وأخذت شمس المعرفة الروحية تشرق شيئاً فشيئاً من وراء غيوم كثيفة طالما كانت تحجبها خلال عصور طويلة .

وخلال هذه العصور كانت تعيش وتتكاثر تلك الترهات والأوهام البالية التى كانت تسيطر على مسيرة « العلم الرسمى » ، وذلك بالأقل منذ عصر الثورة الفرنسية التى اندلعت فى سنة ١٧٨٩ .

وهكذا — بعد أن توالت التحقيقات الإيجابية فى دول عديدة — أصبحت تجسدات الأرواح بكل ما يرتبط بها من حقائق كونية وفيزيائية بالغة الخطورة أموراً ثابتة ، تستمد منها معطيات جديدة تقع الآن فى الأساس من جوانب العلوم الطبيعية والإنسانية التى يعاد الآن مراجعتها وترتيبها من جديد[١] .

---

(١) راجع ما سبق فى صفحة ١٤٨ — ١٨٤ .

عن التطور فى الاتجاه الصحيح

وفى الجملة فإن التطور فى الاتجاه الصحيح هو أسمى سبل ارتقاء الحياة ، بمقدار نجاح العلم فى الوصول إلى بعض حقائق الوجود . وغرس هذه الحقائق فى العقل وفى الشعور هو غاية العلم الصحيح ، بمقدار ما هو غاية الفلسفة السليمة التى تستحق أن تقع فى الأساس من العلم المترابط الأركان . والتى يصح أن يرتبط بها عقل الإنسان ومشاعره فى محاولاته المستمرة المشروعة للتمييز بين الخطأ والصواب ، وبالتالى لنفع أكبر عدد من بنى البشر ، ولتصحيح نتائج أخطائه الخاصة ، ناهيك بأخطاء الآخرين نحو إخوتهم فى البشرية جمعاء ونحو أنفسهم أيضاً .

وهو تطور ينبغى أن يجرى دوماً فى جوانب الذات قبل أن يجرى فى تكييف علاقتها بالآخرين ، لأنه تطور نابع من رغبة الارتباط بحقائق الوجود . وهذا التطور هو الذى حفز كل علوم القرن العشرين لأن تتحول هذا التحول الجذرى المحسوس من الارتباط بفلسفة مادية صماء بكماء عن الكون والوجود ، إلى الاقتناع بفلسفة أخرى وضاءة ونابضة بالحياة عن الكون والوجود . وبلغت هذه الفلسفة ذروتها عند علماء النفس ، وما وراء النفس ، والفضاء ، والرياضة ، والفيزياء بوجه خاص .

ونجد أصدق تعبير عنها فى فلسفة أبرز اسم فى الرياضيات فى هذا القرن وهو ألبرت أينشتين **Albert Einstein** صاحب « نظرية النسبية » التى أهالت التراب على العديد من أركان النظرة المادية عن الوجود ، بكل ما يكتنفها من أخطاء متراكمة ، ومغالطات لا تنتهى[1] .

* * *

نعم فقد شيد أينشتين على « النسبية » فلسفة باذخة عن روحانية الكون والوجود سرعان ما تجاوزت فى قيمتها وفى تأثيرها فى نفوس العلماء ، تأثيراتها العميقة فى تطور الفيزياء — الرياضية . وبوجه خاص فى تطور فيزياء الكم أو الكمية **La Physique Qnantique** .

---

(١) راجع ما سبق عنها فى ص ٥٢ — ٦٧ .

وهذه الفلسفة عن روحانية الكون من أسسها الأولى أن الأشياء المادية لا وجود لها في ذاتها « بل هي تمثل مركّبات من الإحساسات تتكرر باستمرار . فالإحساسات هي العنصر الأول ، ولا شيء إلاها . ولذلك فهو يرى أن غاية الفيزياء ليست هي اكتشاف العلاقات القائمة بين الأشياء المادية ، وإنما العلاقات القائمة بين الإحساسات .

فالإنسان لا سبيل له إلى معرفة العالم . وكل ما في وسعه هو معرفة إحساساته ... وهو يقرر أن العلم وقوانينه من صناعة الفكر الإنساني ، وأن العالم الواقعي هو مركبات من الإحساس ، وأن غاية القوانين هي تصنيف إحساساتنا . فالتجربة شيء ذاتي ، وموضوعها هو مركّبات الإحساس . وهكذا نرى أن علم الفيزياء يكاد يتحول لديه إلى علم نفس .

وهو يعتقد في وجود نوع من العقل الكوني ، وفي نظام سابق يسود في الطبيعة ... فبدون الاعتقاد الجازم بالنظام الباطن الذي يسود عالمنا لما قامت للعلم قائمة . فهذا الاعتقاد هو الدافع الرئيسي لكل خلق علمي ، وسيظل كذلك إلى الأبد [(١)] .

* * *

كما يرى أينشتين أن أجمل انفعال يمكن أن تهتز له نفوسنا هو انفعال الإحساس بالمجهول . فهو أصل كل فن وكل حق . فمن ينعدم فيه هذا الإحساس ولا تجد الدهشة سبيلا إلى نفسه ، ويحيا خائفاً جزوعاً — إن هذا ميت بلا ريب .

« وأن معرفة أن ما لا ندركه موجود حقاً ، ويتجلى حكمة وأية حكمة ، وجمالا وأي جمال ! فلا ترى منه ملكاتنا القاصرة غير صورة في منتهى الفجاجة . أقول إن هذه المعرفة وهذا الشعور هما محوز الإحساس الديني الصحيح . فبهذا المعنى وحده أضع نفسي في صف الرجال المتدينين تديناً عميقاً » .

فالدين في نظر أينشتين هو الإحساس اللاشعوري بنواميس الكون ، مضافاً إليه الإحساس بالإلزام الخلقي نحو إخوتنا .

---

(١) للمزيد راجع عبدالرحمن مرحبا : « أينشتين والنظرية النسبية » بيروت ١٩٦٩ ص ١٢٨ ، ١٢٩ .

وهو يرى أن المادة بمعناها المتداول قد تبخرت وأصبحت لا مادية . وتزعزعت الثقة بالحتمية والعلية ، وبصرامة القانون الطبيعى . وفقد العلم خاصيتين مميزتين له : وهما اليقين والإطلاق ، وحل محلهما الاحتمال والتقريب والنسبية .

كما يرى أينشتين أن الإنسان هو مكتشف ظواهر الوجود ، وهو الذى يرتاده بفكره . إن حياته ومضة وليست شيئاً فى عمر الزمن ، لكن هذه الومضة هى سر الوجود . فلولاها لساد الظلام كل شئ ، ولما كان للوجود معنى أو روعة ولظل كومة من الحجارة تقذف بالحمم واللظى . فمتى كانت الحجارة نداً للإنسان ؟ ! حسب الإنسان أنه بطل هذه الرواية (رواية الوجود) وأنه هو الذى يغنى أنشودة الجمال ، ويعزف موسيقى الخير ، ويحمل مشعل النور [١] .

ماذا عن عواقب الجمود فى العلم ؟

وعلى أية حال فإن أبحاث الباراسيكولوجى قد ثبتت أقدامها الآن فى كل أسس العلوم الطبيعية والإنسانية بنفس المقدار ، واتضح أنها تمثل بذاتها منهجاً علمياً لا غنى عنه فى إطار أى علم منها . وأدى هذا المنهج الجديد خدمات جليلة فاقت فى ضخامة دورها كل التوقعات والتقديرات السابقة .

وليس فى هذا القول أدنى مبالغة أو شطط ، بل هو يمثل معنى أصبح شائعاً وراسخاً فى الدوائر المطلعة . وقد عبر عنه تشارلز ميوز **Charles Mews** — العالم فى الرياضيات والفلسفة ورئيس تحرير مجلة « دراسات فى الوعى » — عندما قال :

« الحق يقال إنه لا توجد علوم خارج دائرة العلم ، أو تقع على هامش العلم ، فكلها علوم ومن العلوم . أما ما يدعى « الباراسيكولوجى » (ما وراء النفس) ، أو « البارافيزياء » (ما يجاور الطبيعيات) فأسماء على غير مسميات [٢] .

(١) عن المرجع السابق ص ١٣٠ — ١٣٢ .
(٢) عن مجلة « العلم والمجتمع » التى يصدرها مركز مطبوعات اليونسكو عدد يونية — أغسطس ١٩٧٥ ص ٤٦ — ٥٥ . وللمزيد راجع ما سبق فى هذا الشأن فى ص ٢٣ — ٢٧ .

ولا يعترض تشارلز ميوز بهذا القول على موضوع هذه العلوم . بل إن الاعتراض موجه إلى استخدام تعبير « ما وراء » Meta أو « ما يجاور » para ، لأن هذه الأبحاث فى نظره تدخل فى صميم علوم النفس والطبيعيات ، فلا حاجة إذاً لاستخدام تعبير « ما وراء » أو « ما يجاور » .

وهذا اعتراض لغوى فنى له وجاهته على التسمية ، وهو يثار أحياناً بمعرفة بعض المؤلفين ، وكان من ضمن دواعى ظهور منهج شامل واسع تحت عنوان «السيكوترونات» أى علم «النشاط النووى الروحى»[1] لتفادى استخدام تعابير « ما وراء» أو « ما يجاور » أو « ما يلى » أو نحوها .

ثم يستطرد ميوز قائلا :

« ومع ذلك يمكن — بل هو ما يحدث بالفعل — أن يضاف إلى كل علم بُعد جديد هو بُعد البارابسيكولوجى ، أو البُعد الوجدانى ، أو حالة الوعى الجديد . وحصيلة هذه الإضافات لا بد أن تنتهى إلى نتيجة خطيرة ، لا تقل عن كونها نظرة جديدة وشاملة للعالم الجديد الذى نعيش فيه » .

ولاحظ عبارة أن بُعد البارابسيكولوجى يضاف فعلا الآن إلى كل علم جديد . وأن هذه الإضافة تمثل نظرة جديدة وشاملة للعالم الذى نعيش فيه . فالموضوع ليس إذاً موضوع معالجة الظواهر غير المألوفة من باب اللهو أو التسلية ، أو من باب رغبة إثارة روح التشويق والتعجب عند القراء .

بل على العكس من ذلك تماماً . ولذا فإن جمودنا المؤسف فى هذا الميدان بالذات — هو فى حقيقته جمود فى جوهر المعرفة العلمية وأسسها الأولى ، ومحاولة يائسة لمحاصرتها بالسدود والقيود التى تضرنا جميعا ولا تنفع أحداً منا .

ومن شأن هذا الجمود أن يضاعف من آلام الإنسان وويلاته التى تحاصره من كل جانب ، بدلا من أن يخفف منها ويدرأ بعض أسبابها . وذلك لأن رسالة العلوم الإنسانية — والطبيعية بالتالى — فى هدفها الأسمى هى محاولة تخفيف هذه الآلام ، ودرأ بعض أسبابها عن طريق الوصول الصحيح إلى هذه الأسباب .

---

(١) راجع ما سبق عن السيكوترونات فى ص ٢٧ — ٣١ .

وعن هذا الطريق وحده يمكن أن يتراجع العديد من مصادر الشكوى والأنين عند بنى البشر أجمعين . وأخطر هذه المصادر — وأجدرها بالتغلب عليها — هى تلك الفرقة التى تسود بينهم أحياناً . وأغلبها ناجم عن التسرع فى الحكم على الأمور ، تسرعاً كثيراً ما ينتهى إلى إشعال نيران الحروب والصراعات الغبية الهوجاء .

ولذا فإن المبدأ الأول الذى يسود هذه الأبحاث كلها مبدأ واضح صريح طالما ارتبطت به نفوس المصلحين المخلصين فى كل الأرجاء ، ألا وهو مبدأ « الأخوّة الإنسانية » كمبدأ عالمى يجب أن يقود قافلة التطور عند بنى البشر أجمعين ، وعلى حد سواء فيما بين العالمين .

وأبحاث البيولوجيا ، والنفس ،وما وراء النفس ، والفيزياء ، والأخلاق ، والطب . . . لا تعرف ولا تعترف بوجود أى حواجز بين بنى البشر بسبب الجنس ، أو الوطن ، أو اللون ، لأن كل بنى البشر سواسية كأسنان المشط أمام نواميس الحياة . وكلها أزلية ، وموضوعية ومطلقة كما بدعتها حكمة الإله .

فكذلك أيضاً تجرى هذه الأبحاث — وما قد ينبع عنها من قضايا شتى فى الوجود والخلود — فإنها كلها تسير على نفس الوتيرة ، وعلى نفس المنهج الوضعى الموضوعى ، وذلك بغية الوصول إلى إذابة تلك الحواجز الوهمية العالية القائمة بين بنى البشر .

وذلك تمهيداً لشروق أضواء فجر مشرق جديد من الحب الإيجابى النقى ، ومن الإحساس بالتضامن البشرى ، ومن الرغبة الصادقة فى تغليب كفة الإيثار على الأثرة ، وكفة الوداعة على العدوان ، والعدل على البغيان .

* * *

ثم ما العمل الآن بعد أن اتضح من نتائج هذه الأبحاث فى الظواهر غير المألوفة أن لها استخدامات عملية لا تحصى فى أخطر جوانب الحياة ؟ وكلها لازمة لتخفيف آلام الإنسانية جمعاء ، وللدفع بمسيرة الركب العلمى نحو الأمام فى ميادين بالغة النفع ، مترامية الأبعاد ، مفرطة فى خطورتها ؟ !

ومنها مثلا تحليل أعمق مشكلات الشعور واللاشعور . والتكوين الفطرى للإنسان السوى والشاذ ، ومواجهة الأمراض العضوية والنفسية ، وخدمة مرفقى الأمن والعدل . والدفاع القومى . بل أيضاً ضغط العديد من أوجه الإنفاق التى تضر ولا تنفع ، ناهيك بضرورة درء التسرع فى تشخيص الوفاة . ودرء دفن الأبرياء وهم أحياء ، وهو أقبح خطر يهدد الإنسان !

هل نترك العالم كله يسبقنا فى كل هذه الأمور وهو يجرى فيها عدواً للأمام ، ويطفر فيها كل يوم طفرات سريعة جليلة ، لكى نظل نياماً أو أشباه نيام ؟ ! أم هل نطالب العالم كله بأن يشاركنا فى نومنا العميق الطويل ؟ ! وماذا يكون عندئذ موقفنا من هذا العالم ، أو بالأدق ماذا يكون موقفه منا ، وحكمه علينا ؟ !

* * *

وهذه الطفرات — السريعة الجليلة — قد تبدو أكثر وضوحاً أمام عينى القارئ بعد طواف سريع معه بطائفة من المؤلفات الحديثة فى الظواهر غير المألوفة .

وهذه المؤلفات الحديثة أصبحت الآن أكثر من أن تحصى ، بل ربما تتجاوز فى عددها ونوعيتها المؤلفات المتدفقة فى سائر نواحى العلم والعرفان .

لكننى اخترت منها بعض نماذج معدودة فى فروع مختلفة من الباراسيكولوجى . وكلها نماذج حديثة لا يتجاوز عمر أقدمها ربع قرن فقط ، وهو لا يعد شيئاً مذكوراً فى تاريخ التطور العلمى . لكنه فى هذا الميدان بالذات ينبغى أن يعد شيئاً مذكوراً ، إذا قيس بالعلوم الأخرى .

فكل الأبحاث فى هذه الظواهر لا تمتد إلى أكثر من قرن ونصف ، طفر فيها منهج الباراسيكولوجى أسرع مما طفر فيها منهج أى علم آخر ، وأسهم فى نفس الوقت فى تحقيق طفرات العلوم الأخرى على نحو منطقى ومترابط . وعلى نحو فاق كل التقديرات المتوقعة ، أو تلك التى كانت متوقعة فيما سبق .

وهذه النماذج من المؤلفات صدرت باللغات الانكليزية ، والفرنسية ، والألمانية .

وهي تتناول بحوثاً وموضوعات شتى من هذه الظواهر [1] . وسأكتفي بتلخيص سريع ، بل بالغ السرعة ، لأهم ما في كل مؤلف منها من موضوعات متنوعة .

* * *

وكل هذه الموضوعات تنتمي — في نهاية المطاف — إلى الأنثروبولوجي ، أي إلى علم الإنسان في أوسع مفاهيمه . وهو بدوره ينطوي على أبواب عديدة من كل العلوم التي تنقب في أغوار فطرة الإنسان ، وأوجه سلوكه العضوية والنفسية .

ومن هذه الموضوعات أبواب عديدة في علوم النفس ، والحياة ، ووظائف الأعضاء ، والاجتماع ، والفلسفة . وكلها لها أبواب متداخلة في الطب العلاجي والتكويني ، والفيزياء ، والفضاء ، والكيمياء ، والفلك . . . .

وهذه الأبواب يوجد بينها تداخل وثيق الآن ومتعدد النواحي ، كما أشرت إلى ذلك في أكثر من موضع . ولذا فلا مفر من أن أقدم في الباب المقبل عدة مؤلفات حديثة في الباراسيكولوجي ، وكل مؤلف منها يتناول جانباً أو أكثر من الظواهر الروحية في إطار منهج الباراسيكولوجي هذا .

وقد تخيرت هذه المؤلفات الحديثة نسبياً لما لمسته من أن كل مؤلف منها يلقي ضوءاً على بعض جوانب العلوم الإنسانية والطبيعية ، بقدر ما يوجد بينها من صلات متعددة تتجمع كلها في بؤرة واحدة مشتركة هي محاولة دراسة الإنسان بوصفه كائناً عضوياً — روحياً ، وهذا هو موضوع الأنثروبولوجي في مفهومه الواسع .

---

(١) وأغلبها ترجمت إلى اللغات الحية الأخرى ، أما اللغة العربية فما تزال — حتى الآن — تعاني من اضطهاد بنيها لها ، عندما يرفضون إثراءها بالمزيد من العلم والعرفان ! !